كنتُ عضواً فى جماعة التكفير والهجرة..!

بقلم خادم الله "بولس"



An Egyptian who was a member of
the Islamic "El-Takfeer wal-Hijrah"
(Arabic)

مقدّمـة الاختبـار:

لا يسعنى إلا أن أشكر الله من أعماق قلبى، من أجل هذا التحوّل العجيب والإيجابى فى حياتى، وكذلك فى حيـاة كلّ من يطلب الله بإخلاص، إذ قادنى بإرادته وقـوّته القادرة، منتشلاً إيّاى من أفـواه الأسود، ومن حظـيرة الهالكيـن، والعجيب فى ذلك، أنّ هذا التحوّل لم يكن بدافع ذاتى، أو هو انعكاسٌ لشىءٍ سمعتـُه، أو بكلمـة ألقاها أحد المبشّرين إلىّ أو بسعى أحد خدّام الإنجيل، بل على النقيض من ذلك، حدث ذلك بينما كنت أسعى جاهداً لإحباط خطّة الله لخلاص البشريّة، مع هجومى الشرس على كلمته، وعلى كلّ مَن يؤمن بها...

كان الله قد أعدّ العُدة كاملة وبإحكام، لاصطيادى بشباك محبّته التى لا يمكننى الهروب منها، وهذا هو شأن الإله الحىّ الذى يـبحث عن الضالّ، إن كان صادقاً فى توجهه إليه، حتى ولو كان يسير فى الاتجاه المعاكس. إنّ الله يـبسـط يديه لكلّ نادم تائب، وينشر نوره لكلّ تائـه فى ظلمات العالم، ويقرع بهدوء على كلّ قلبٍ ضائع وخَـرِب، ليملأه بالغنى الروحىّ، ويعمّره بالطهارة والقداسة. فهو الذى يعطى بسخاء ولا يعيّر، إنّه لا يعطينا بما يناسب أفعالنا، بل من فيض حبّه العجيب يعطى، وحسب وعوده الصادقة، وبمقدار رحمتـه، وبميزان عظمته، جلّ جلاله وتعظّم اسمه.

ولا أخفى سراً أننى ترددتُ كثيراً فى كلّ مَرّة كنت أحاول فيها كتابة هذه الكلمات، ذلك لأننى خشيت أن أكون مبالغاً فيما أقول، أو أن يُـنظر إلىّ كشخص فوق العـادة، يبحث عن مجدٍ له لا يستحقه، فى حين أنّ المجدَ كـلّه لله

وليس لسواه. وسبب آخر كان يحول بينى وبين كتابة هذه السطور ألا وهو الكبرياء والغرور، الذى كان لا يزال هناك منه بقيّة باقية، لم أكن قد تخلّصتُ منها. إذ اعتبرتُ أنّ الإفصاح عن عمل الله فى حياتى، إهانة قد توجّه الى شخصى الذى كان شديد القسوة على أتباع ذاك الإله الحيّ الذى تعامل معى بحبّه العجيب، وفتح لى عينيّ لأرى النور الذى لم أكن أعرفه من قبل. وكما سنقرأ فى الصفحات التالية.

لم أجد بداً من أن أعلن استسلامى فى تلك المعركة غير المتكافئة بين شيطان يسكن بداخلى، وإله قدّوس يعرض علىّ خلاصَه، ويفتح لى ذراعيه لأتكئ على صدره الدافئ الحنون، حتى استطعت أن أرددَ مع أيّوب: **"بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي."**[١] وأطلب كما طلب داود: **"قَلْباً نَقِيّاً اخْلُقْ فِيَّ يَا اللهُ وَرُوحاً مُسْتَقِيماً جَدِّدْ فِي دَاخِلِي."**[٢] ذلك هو **"الربّ يسوع المسيح، كلمة الله الأزليّة وروحه الذى لا ينفصل عنه."**[٣]، **"إنّه هو الطريق والحقّ والحياة."**[٤] **"مَنْ يؤمن به فلا يموت وإن مات فسيحيا."**[٥] **"مَنْ يقبله لن يعطش ومن يأتى إليه لا يجوع."**[٦] **"هو الأول والآخر."**[٧]

هو الربّ يسوع المسيح



حياتى قبل الإيمان

كان لا بدّ لى أن أتكلّم ولو بإيجاز عن حياتى قبل الإيمان، لأنه من خلالها ستتضح مدى محبّة الله لنا نحن البشر، وتظهر أنّه فى الوقت الذى نسعى نحن جاهدين لمقاومة عمل الله، يسعى هو فى الاتجاه المضاد ليجتذبنا إليه كراعٍ يبحث عن قطيع له ضاع فى البريّة القفراء الجرداء.

لقد نشأت فى أسرة متديّنة أصوليّة إلى أبعد الحدود... ممّا دفعنى الى أن أسلك نفس المسلك الدينى الأصولى، إمّا بإرادتى أو بحكم النشأة الأسريّة، وبدأت مشوارى مع الكُتّاب (مدرسة صغيرة) الذى كان يقع على أطراف **قريتنا الصغيرة، الواقعة فى إحدى محافظات الوجه القبلى فى صعيد مصر على مسافة ٢٠٠ كم جنوب القاهرة**. كان اهتمامى فى البداية مجرّد حفظ ما كان مقرراً علينا من السُوَر القرآنيّة فى مادة التربية الدينيّة بالمدرسة، ثمّ تدرّج ذلك إلى اهتمام شخصى نابع من حبّى لكلمات الله، وفى تلك الأيّام **كان المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة يُنظّم مسابقة سنويّة بصفة دوريّة، بين طلاب جميع مدارس الجمهوريّة، فى حفظ جزء أو جزأين من القرآن. طلبَت منّى والدتى أن أشارك فيها. وأول مرّة شاركتُ فيها حصُلتُ على المركز الأوّل،**

---

١ سفر أيّوب ٤٢: ٥
٢ مزمور ٥١: ١٠
٣ إنجيل يوحنّا ١:١ & ١٠ : ٣٠ و٣٨
٤ إنجيل يوحنّا ١٤: ٦
٥ إنجيل يوحنّا ١١: ٢٥
٦ إنجيل يوحنّا ٦: ٣٥
٧ سفر الرؤيا ٢٢: ١٣

وكانت الجـائـزة عشـرة جنيهـات..! فرح بهـا والدى كثيراً، وكان يشجعنى على المشاركة باستمرار، ليس إلا للفوز بالعشـرة جـنيهـات..!

استمرّ ذلك حتى استطعتُ حفظ أكثر من خمسة عشر جزءاً من القرآن قبل أن أنهى المرحلة الإعداديّة، وأكملت ما تبـقى منه فى المرحلة الثانويّة، كنت فى هذه الفترة أقيم مع الأسرة فى منزل العائلة الذى كان يضمُ بقيّة أعمامى وأولادهم، **وكان واحدٌ من أبناء أعمامى شديد التديّن، إذ كان يدرس فى إحدى كليّات جامعة الأزهـر**، وكان يـشجعنى على قـراءة الكتب، وفى بعض الأحيان كان يشتريها هو لى على نفقته الخاصّة، لكن أثناء ذلك الوقت انتقلت أسرتنا للإقامة فى بيت منفرد عن بيت العائلة هذا، وسافر ابن عمّى إلى إحدى البلاد العربيّة، ليعمل إمام وخطيب لمسجد هناك واستمرّت إقامته هناك مدّة عامين، وبعد عودته فى إحدى المرّات أفهمنى أننا **لسنا على الإسـلام الصحيـح الذى يُدخل مَن يدين به الجنّة**، لأننا لا نعرف إلا القليل، وأنه **قد تـقابل هناك بقيادات مسلمة وإخوة فارّين من ظلم الحكم الطاغى هنا، وطلب منّى التعمق فى دراسة بعض الكتب للإمام ابن تميمة والشيخ سيّد قطب وابن حزم الظاهرى.**

ورغم صعوبة أفكار بعض هذه الكتب، إلا أننى أعجبت بها كثيراً، إذ كانت هذه الكتب تضع منهاجاً شاقاً يصعب على المرء منّا أن يؤدّيه كما هو، فمثلاً وجدت هناك حديثاً يقول: **مَن أكل مع مُشرك أو ساكنَـه فهو مثله**، من هنا بدأتُ أدخل إلى مرحلة جديدة فى حياتى الدينيّة، **إذ بـدأتُ أتفحّص النـاس، مَن هو كافر ومَن منهم المسلم**، وبدأت أيضاً أجمع النصوص التى تسهل علىّ تمييز المسلم من غير المسلم حتى أرسم وأحدّد علاقتى به حسب نوعيّة كل منهم، حتى وجدت نفسى أمام موقف صعب جداً، **إذ أن والـدى ووالـدتى بنـاءً على ما وصلتُ إليه يُـعدّان من الكافـريـن..!** فوالـدى كان يُدخّن، ولا يطلـق لحيته، ووالـدتى لم تكـن تصلّى وكانت تسبّ الناس كثيراً، **كذلك إخوتـى كانوا كفّاراً أيضاً فمنهم مَن يجلس ويشاهد التليفزيون ومنهم مَن لا يصلّى**، ومنهم مَن لا يحلق لحيته، ومنهم مَن يدخّن السيجارة، لدرجة أننى قد مَنعتُ شقيقـاتى عن تكملة الدراسة فى مراحل مختلفة، **وطلبتُ من والـدى أن يُطلّـق والدتـى..!** لأنها لم تكن تتجاوب معى... ممّـا أثـار والـدى علـىّ.

وصلتُ فى نهاية الأمر إلى أنّ والدى ووالدتى وإخوتى وأخواتى مشركون... وسألتُ: هل يجبُ علىّ مقاطعتهم وعدم الأكل أو النوم معهم...؟! فأجابنى ابن عمّى: نـعم... فقلت: إذن... وأين أذهب؟ قـال: تعال عندى... هل تثق فى عمّك وامرأته من حيث الإيمان...؟! قلت: أثـق... فهما مؤمنان حقاً!! قال: إذن... فاذهب وتعال بأمتعتك... لتعيشَ معى... بعيداً عن حياة الكُفر والشرك التى فى بيتك.

حملتُ أمتعتى ورحلت وسط دموع والدتى وإخوتى ولم أشفق عليهم، بل كنت أقول: إنّه لا مقام لى بينكم اليوم... **إذ أنّكم كافرون... وكنتُ فى غاية السعادة وأنا أرانى أهـجـرُ بـيـتى فـى سبـيـل الله .**

استقرّ ابن عـمّى فى القاهـرة واستأجر شقة بالقرب من جامـعة الأزهـر، حيث كان فى السنة النهـائـيّة، ممّا اضطّرنى للعـودة ثـانـية لـبيت أبـى. أجُـرّ أذيـال الخـزى والانكسـار، وسألت ابن عمّى ألا يُـعَـدُ رجـوعى هـذا معصية؟ قال: لا... **"فالضرورات تبيح الممنوعات" وقرأ علىّ سورة البقرة الآية ١٧٣ "إنَّمَا حَـرَّمَ عَلَيـْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُـرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْـمَ عَلَيْـهِ إِنَّ اللّـهَ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ"**[١] ففرحت كثيراً بذلك.

كنت آنذاك فى الثانويّة العامّة وقررت الاجتهاد حتى لا يُقال بأنّ التديّن يعيق الدراسة، ونجحت وحصلت على نسبة مئويّة عالية، **أهّلتـنى لدخول كلـيّة الطبّ بجامعة القاهـرة**، وبعد ذلك **بدأت أنفصل فكريـّا بالتدريج عن ابن عمّى، إذ قرأت كثيراً من الكتب كان هو يرفضها قائلاً: إنّها تحمل أفكار التكفير والهجـرة**، أو خوارج القرن العشرين، كان كلامه هذا دافعاً قويّاً لى، لأعرف ماذا يقول هؤلاء الناس الذين نسمع عنهم ولم نقابل أحداً منهم.

---

١ سورة البقرة الآية ١٧٣

وجدتُ داخل الكليّة كثيراً من التيّارات السياسيّة داخل جماعات صغيرة وقانونيّة، ممّا دفعنى إلى أن ألتحق بالجماعة الدينيّة بكليّتى، لكى لا نترك الساحة لهم، كان مقرّر الجماعة أحد أعضاء هيئة التدريس، وكنت أميناً عامّاً لها، وكان معنا رجل آخر مسئول عن الاتّصالات بالجماعة.

لاأخفى أننى وجدت متاعب كثيرة داخل الجماعة، لأنهم كانوا يعيشون حياة اسلاميّة تقليديّة، بعيدة كلّ البعد عن المفهوم الصحيح للإسلام، من حيث تعاملهم مع غير المسلمين (لا أعنى المسيحيّين بل أعنى المسلمين بالاسم فقط) بدأتْ طموحاتى الدينيّة تنمو باطراد وكنت أسابق الزمن للوصول إلى حالة لا تقل عن حالة مَن كنت أسمع عن صولاتهم ضد الحكومة والنظام، **فبدأت بتكوين نواة لجماعة صغيرة أقوم بتلقينها الإسلام كما فهمته، وكنت ألمس فيهم الطاعة والخضوع، كنّا نصلّى معاً فى زاوية بعيدة عن المساجد،** لأنّها كما علمنا ما هى إلا مساجد ضرار، بُنيت على غرار ما بناه اليهود لإعاقة دعوة الرسول.

شعرت بعد ذلك بضرورة ترتيب علاقتى بكل الناس، كلٌ حسب موقفه وفهمه للإسلام. فكل مَنْ لا يقبل ما نقول هو كافر ويعامل معاملة الكفّار، " **لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ**[١] "

لم أجد فى ذلك صعوبة لأنّنا كنّا مدفوعين برغبة وحماس شديدين لأنْ نعيش كما كان رسول الله يعيش، **وكانت تتراءى لنا صورة أبو عبيْدة بن الجرّاح الذى قال عنه محمد إنّه أمين هذه الأمة عندما قتل والده الذى رفض الإسلام، كذلك صورة مصعب ابن عمير الذى لم يرضخ لتوسّلات والدته وتركها تموت لرفضها الإسلام، وكذلك أبو بكر الذى قال لوالده: لو أنّى أدركتك لقتلتك.** كلّ هذه الصور كانت تُنمّى داخلنا القسوة على الأهل والأصدقاء، إنْ هم رفضوا إسلامنا، ولم يكن ذلك لمجرّد الكراهيّة بل على العكس كنت أتألّم وأنا أرفع صوتى تجاه والدى ووالدتى وأسبّ أخى وأخواتى وأهدّدهم بالقتل. لكنّ الدافع كان الرغبة الصادقة لدىّ لأنْ أطيع الله ورسوله وأصِل إلى ما وصل إليه هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكنت أضع نصب عينىّ حديث الرسول الذى يقول: **"لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه".**

كان هناك فرقة أو طائفة من الناس نحن بحاجة إلى تحديد علاقتنا بها وتعاملاتنا معها حسب نصوص القرآن والسنّة: **وهم أهل الكتاب والحقيقة كانت تلك الطائفة هم النصارى** لأن مصر يندر فيها وجود اليهود، وإن وجدوا فهم لا يقيمون علاقات مع أحد. **ومن خلال البحث عن سلوكيات الرسول تجاه النصارى، وجدنا الصورة قاتمة جداً، لكنّها كانت مريحة لنا إذ كنّا نغار منهم فى بساطتهم وحسن معاملاتهم، وسرعة إقامتهم لصداقة مع مسلمين اسميّين، كان لديهم برود غريب تجاه ما كنّا نوجهه إليهم من مضايقات، والتى فسّرناها على أنها مجرّد محاولة قذرة منهم للخروج من عزلتهم وهم الأقليّة فى مجتمع أغلبيّته من المسلمين، ولم يكن أمامهم سوى هذا الخبث والدهاء فى حسن معاملة المسلمين، لأنّهم أن أبدوا غير ذلك فلن يكون لهم مقام فى وسطنا، وهذا هو بعينه ما قاله القرآن عنهم من أنّ الله سيضرب عليهم الذلّة والمسكنة.**

بدأت كراهيّتنا للنصارى فى صورة مضايقات فى الشوارع والطرقات، لكنّهم كانوا يقبلون ذلك بوداعة تثير اشمئزازنا ممّا يدفعنا لزيادة الكيل من المضايقات، فبدأنا نفكّر فى كيفيّة إرهابهم فعلمنا **أنّ الله قد أحلّ دماءهم وأموالهم** وقال عنها أنها "فَىء" أى تؤخذ بدون حرب مثل ما فعل الرسول بيهود بنى قريظة، إذ حاصرهم وقتل شبابهم وسبى نساءهم واستحلّ نخيلهم وأجلاهم عن المدينة، رغم أننا لم نكن قادرين على عمل ما عمل محمد، لكن كنّا نسطو على محلاتهم وننهبها، **ووصلَتْ درجة عداوتنا للنصارى إلى درجة التعدّى على كنائسهم ودور العبادة** فى أماكن متفرّقة من القرية التى كنت أقطن فيها، كان أشدّها هو التخطيط وتنفيذ عمليّة تدمير إحدى الكنائس، أثار هذا التصرّف شعور الحكومة **حيث تظاهر الأقباط ضدّ هذا العمل، وكان يبدو أنّ الحكومة مسرورة بهذا السلوك، إذ كان يتّم معاملتنا داخل الحبس على أفضل ما يكون.**

وعندما أنهينا فترة السجن هذه خرجنا واستقبَلَنا أهالى القرية استقبال الأبطال، ممّا دفعنا إلى التمادى فى ذلك، لكن بطرق أكثر دقّة وحكمة لا تُمكّن الحكومة من القبض علينا، كلّ ذلك تمّ فى فترة وجيزة وتناقل الطلبة فى الكليّة هذه الأخبار ممّا دفع **أحد قيادات التكفير والهجرة إلى طلب الجلوس معى ليعبّر لى عن**

---

١ سورة آل عمران الآية ٢٨

فخره بشجاعتى وحبّى لله ورسولـه. علمتُ أنّـه من جماعة شكرى، ففرحتُ وتمنيتُ لـو كنتُ واحداً منـهم. كان صديقى هذا حريصاً جداً فى حديثه معى. وفى إحدى عطلات الصيف قمنا بتنظيم معسكر للجماعة الإسلاميّة بالكليّة وحصلنا على الـدعم المادّى لهذا المعسكر من إدارة الكليّة. كان الهدف من ذلك المعسكر هو أن **نقضى أنا وعضو التكفير والهجرة أكبر وقت ممكن** للمناقشة وتداول الأفكار حول الإسلام، بعد المعسكر طلب منّى صديقى أن أبدى رأيى فى الجماعة الإسلاميّة وهل أريد الانضمام إليها لو أتيحت لى الفرصة؟ وكان يردّد على مسامعى الأحاديث التى تتكلم عن ضرورة الانضمام لجماعة تقيم كتاب الله وسنّة رسوله مثل قوله: **"مَن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهليّة" ، "ولا إسلام بلا جماعة ولا جماعة بدون أمير".**

شعرتُ أنّه لا بديل لدىّ سوى الانضمام للجماعة ما دمتُ أحبّ الله ورسوله. وهذه الجماعة هى أفضل ما رأيت من حيث توافق فكرها مع ما كان بداخلى عن الإسلام. تمّ ترتيب لقاء لى بالقاهرة فى منزل أحد الأعضاء **بالقاهرة ووضعتُ يدى بيد الأمير شكرى قائلاً: "أبايعك على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وأن أوثرك على نفسى، إلا أن أرى منك كفراً بوّاحاً". لم تكن البيعة مجرّد كلمات تُردَد، بل كانت تضع حياتك فى يد الأمير وتكون قد بعتَ نفسك لله وللرسول.**

فى الحقيقة كنتُ سعيداً جداً بهذا اليوم، ولم أسعد أكثر من هذا اليوم إلا يوم معموديّتى. غرسَتْ هذه البيعة فى نفسى شيئاً من الخضوع وعدم الخوف وتنفيذ كلّ ما يُطلب، بدون التفكير فيما ينتظرنى من ألم أو مشاكل، لأننى **اعتبرتُ ذلك طاعة لله والرسول**، وكنت مستعدّاً لأن أفعل أكثر ممّا يُطلب منّى. بدأت القسوة تظهر على تعاملى مع أسرتى وكنت لا أسَلّم عليهم، وعندما يسألوننى كنت أقول لهم: إنّكم كُفّار!!.. إنّكم تشبهون الذين قال الله عنهم: **"هل أدلّكم على الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم فالحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً".** طلب والدى منّى أن أرشده لما يجعله مسلماً فى نظرى... فقلت له: أوّلاً تُطلق لحيتك، لا تجلس للراديو. فوافق، فقلت له: **إنّ والدتى** لا تُصلى وتارك الصلاة كافر... وبناءً عليه فهى **كافرة وحياتك معها حرام...** فثار والدى، وحلق لحيته وكاد يضربنى بحجر كان أمامه لولا أننى هربت منه. للأمانة هناك نقطة أريد أن أذكرها... وهى: **إنّ أوّل شىء جعلنى أتحمّس للانضمام لجماعة التكفير**، أنّها كانت شديدة **القسوة على النصارى** الذين كنت أكرههم، وأريد نصوصاً قرآنيّة تؤيد كراهيّتى هذه، بحيث أنطلق تحت مظلّة قرآنيّة، فلا يحدث لدىّ شىء من تأنيب الضمير على ما أفعله.

بعد ذلك عيّننى شكرى لمجموعة فى ضواحى القاهرة، وكان يُعبر لى عن إعجابه بى وبإخلاصى، فأطلق علىّ لقب "أبو عبيدة". لقد كان كل فرد فى الجماعة يحمل اسماً حركيّاً ولم نكن نعرف أسماء بعضنا البعض الحقيقيّة.

زادت ثقة شكرى بى **فقام بإرسالى إلى عدّة دول عربيّة وأجنبيّة** ممّن كان يتواجد بها أعضاء الجماعة، وقمنا بالتعاون معاً لاجتذاب أعضاء جُدد وأخْذ البيعة منهم **نيابة عن الأمير العام شكرى مصطفى، وكانت هناك بعض المضايقات من الحكومة، ممّا اضطرنا للهجرة لأوقات قصيرة لجبال المنيا والبدارى وأسيوط، لكن فى كلّ مرّة، كان يتم القبض علينا وترحيلنا للقاهرة ثم الإفراج عنّا**، هذا كلّه كوّن لدينا جميعاً شعوراً بأنّ الهجرة الآن أصبحت أمراً لا مفرّ منه إذ لا مقام لنا بين ظهرانى المشركين عملاً بنصّ الحديث: **"أنا برىء مِن كلّ مَن أقام بين ظهرانى المشركين"** وهذا تطلّب منّا أن **نرسل أحد الأعضاء للبحث عن أنسب مكان يمكننا أن نهاجر إليه الهجرة الكبرى التى لا يحق لنا الرجوع منها إلا لإقامة الدين، والقضاء على نظام الحكم الأرضى الذى لا يَحكم بما أنزل الله.**

وفى أحد الأيام من عام ١٩٧٧ جاءنا أمر بضرورة البحث عن **شقة مفروشة فى أحد الأماكن الشعبيّة** دون أن نسأل لماذا، قمتُ أنا وأحد الإخوة بالبحث عن هذه الشقة واستأجرناها دون أن ندرى سبب ذلك، وفى صباح اليوم الثانى علمنا أنّه **قد تمّ اختطاف الشيخ محمد، على يد رجال من جماعتنا**، وبعد لحظات من سماعنا هذا البيان زارنا أحد أفراد الجماعة وحكى لنا ما تمّ بالضبط، كان الشيخ محمد دائم التهجم على أفكار الجماعة، ففى الحقيقة كان يكتب عنّا أموراً غير حقيقيّة، مثل أننا نزوّج المرأة لأكثر من رجل، وقد وجّهت إلي الجماعة تحذيرات متكررة للتوقف عن مهاجمة الجماعة إلا أنّه استهان بهذه التهديدات والإنذارات، وعلمنا من أخينا أنّ الهدف من هذه العمليّة

هو **الضغط على الحكومة، للإفراج عن بعض القيادات التى تورطت فى العمليّة الفنيّة العسكريّة، كذلك طلب فدية ماديّة تمكننا من تغطية نفقات الجماعة المتعددة.**

فوجئنا فى مساء يوم الاختطاف هذا بالقبض على معظم – إن لم يكن كل – أعضاء الجماعة فى كل مصر، حتى مَن كان له أدنى علاقة بنا دون أن يكون عضواً.

أدخِلنا **معتقل القلعة وقضينا عامين** تحت التعذيب والتحقيق فيما كان يُعرف بقضيّة الانتماء لجماعة مناهضة لنظام الحكم، بعد ذلك **أطلِق سراحنا فهربنا خارج البلاد، وانتشرنا فى عدّة دول عربيّة انتظاراً لأوامر من الأمير الذى عيّنه شكرى بدلاً عنه،** كانت هذه بداية تفتت وانهيار الجماعة وأقول بكل صدق وأمانة **لو لم تكن عمليّة الشيخ محمد هذه لكان لهذه الجماعة شأن آخر فى تسيير الأمور بمصر.**

كنّا كما سبق أن قلت، قد أرسلنا مَن يبحث عن بلد، يمكننا أن **نعيش فيه فترة استعداد للجهاد الأكبر،** وكانت النتيجة مشجعة، وبدأ بعض الأعضاء يهاجرون إلى هذه المنطقة تباعاً**. وصلتنى رسالة بمكان الهجرة فتوجهت إليهم فى أوائل عام ١٩٨٠** - وبدأنا نرتب كيف سنقيم فى هذه المنطقة... خاصة وأننا قد علمنا أنّها منطقة صحراويّة خالية من السكّان، اللهم بعض البدو الذين يسلكون خلالها للتجارة. انتهينا من كل الترتيبات وبدأنا نرحل على مجموعات متفرقة حيث لم يكن لدينا سوى سيّارة واحدة.

كان من ضمن أعضاء الجماعة كثيرون من مواطنى البلدة التى هاجرنا إليها، ممّا ساعدنا على سهولة التعرف على جغرافية المكان وعادات وتقاليد هذا المجتمع الجديد. **حفرنا آباراً للمياه،** قمنا بعمل كلمة سِر بيننا، وتناوبنا حراسة المعسكر، وقمنا بتدريب مَن لا يعرف إطلاق النار، ووفرنا لكل فرد سلاحاً شخصيّاً للدفاع عن نفسه وقت الضرورة.

سارت الحياة بالنسبة لنا أوّل الأيام فى فرح وسرور، إذ كنّا نتذكر هجرة الرسول وننتظر اليوم الذى سنعود فيه إلى مصر فاتحين **كما فعل الرسول عند خروجه من مكّة، وكان كل واحدٍ منّا يترك أهله الكفّار ويهاجر فى سبيل الله لا يفوته أن يردد هذه الأبيات الشعريّة التى كانت تبث فينا الحماس والنخوة الإسلاميّة غيرمهتمّين بما يواجهنا من صعوبات فكل شىء يحدث لنا هو فى سبيل الله، وإن متنا فلنا الجنّة وإلا فالنصر حليفنا:**

وداعاً يا ديار الأقربين	**وداعاً فقد تطول السنون**
يعزّ علىّ ترككم ولكن	**سأمضى أقصد الحقّ المبين**
فقومكم وديارى تركوا	**كتاب الله رغم القارئين**

كنّا عندما نردد هذه الأبيات تمتزج فينا مشاعر الزهو والابتهاج بدموع الأسى والحزن على فراق الأهل والأصحاب.

كانت البلدة التى هاجرنا إليها تعانى من القلاقل والاضطرابات وحرب العصابات، وكان أهلها جميعاً مسلّحين ممّا أتاح لنا فرصة حمل السلاح دون مضايقة من أحد، بدأت أخبارُنا تتسرّب للجهات الأمنيّة هناك عن طريق البدو الذين كانوا يتيهون فى الصحراء فيلتجئون إلينا لإرشادهم.

وذات يوم فوجئنا بسيّارتين مدرعتين تقتربان من موقعنا، رصَدَهُما مسئولُ الحراسة من خلال التلسكوب الذى كان بحوزته، وعندما وصلوا على بعد أمتار من المعسكر فوجئوا بمن يستوقفهم طالباً الاستفسار منهم عمّا يريدون، طلبوا مقابلة أحدنا ليتعرفوا عن سبب إقامتنا فى هذه المنطقة وإلى أى جهة نحن ننتمى، إذ قد
تولدت لديهم مخاوف كبيرة من أن نكون موالين للمنشقين هناك، بعد حوار طويل... كنت مشاركاً فى بعضه، اكتشفوا أننا لسنا من مواطنيهم بل نحن غرباء، ممّا زاد من مخاوفهم تجاهنا. وبعد عدّة مناقشات كان علينا أن ننسحب من الموقع فى يأس وأسى لعدم تمكننا من تنفيذ ما كنّا نصبو إليه، **وحيث أننا كنّا فى بلدة مجاورة لمصر فقد كان الرجوع إلى مصر سهلاً ويسيراً وغير مكلف، لذا فلم نجد بُدّاً من الاستمرار فى خطتنا. قرّر الجميع العودة للقاهرة.** تخلفتُ أنا وبعض الزملاء عن العودة لظروف **خارجة عن** إرادتنا، **ومكثنا وحدنا لفترة طويلة تعرفنا خلالها على بعض**

الإخوة الذين كانوا قد شاركوا فى حرب أفغانستان واقنعناهم بأن تلك الحرب ليست بهدف نصرة دين الله وبايعونا وأصبحوا إخوة لنا وقدموا لنا مساعدات كبيرة **حتى رجعنا إلى مصر بطريق البر وكان ذلك فى مطلع عام ١٩٩٠ .**

تمّ القبضُ علينا بمنفذ الدخول إلى القاهرة واصطُحِبنا لوزارة الداخليّة وبعد فترة من التحقيقات **اطلقوا سراحنا،** حاولنا نحن ومَن بقى على بيعته للجماعة إعادة ترتيب الجماعة، **وكنّا نلتقى مرّتين شهرياً وذلك لدراسة الأفكار الأساسيّة للجماعة وإعادة صياغتها من جديد. انتهينا من ذلك فى فبراير ١٩٩٠ .**

ذات يوم طالعتنا الصحف عن طريق أحد الإخوة - الذى كان متخصصاً فى قراءة الكتب والمجلات، والبحث عن كل شيء يتعلق بنشاط الجماعات الأخرى فى العالم – فلقد جاءنا فجأة ووجهه محمراً قائلا: هل علمتم بما فى الصحف اليوم؟ قلنا: لا... ماذا حدث؟ قال: **لقد تمّ القبض على مجموعة مبشرين كانوا يقومون بتنصير المسلمين الإسميّين** نظير إغراءات ماديّة وغير ذلك، أو توريطهم فى علاقات جنسيّة، وكان ذلك فى شهر رمضان، ممّا أثارنا جداً **وجعلنا نشعر بالخزى والعار**، وممّا دفعنا لضرورة أن
يكون **لنا ردّ فعل إيجابى أمام هؤلاء الذين يأمرون بالمنكر**، إذ لا بدّ من تغييره، لكن كيف نغيّره ... هل باليد؟ هل باللسان؟ ذلك هو أضعف الإيمان... !! لكن كيف ومتى؟!

بـدايــة الطـريــق

عندما قرأنا الخبر الذى نقله إلينا أخونا شعرنا بالامتهان والتقصير تجاه الله، وقررنا أن نقوم بدور فعّال إزاء عمليّة التبشير هذه **وإيقافها بشتى الطرق،** وبعد مداولات شديدة وطويلة **استبعدنا العمل المسلح** لعدّة أسباب منها: **أنّ النظام الأمنى فى مصر قد تطوّر عمّا كان فى السبعينات، كذلك كثير من القيادات النشطة فى الجماعة والتى كانت تتولى عمليّة تهريب كل مَن يشعر أنه فى خطر قد انتهت ولم يتم تعويضها بنفس الكفاءة، إذ بعضٌ من هذه القيادات قد حُكم عليه بالإعدام والآخر بالسجن المؤبد، ولهذه الأسباب استبعدنا الخيار المسلح، وتوجهنا للبحث عن طريقة أخرى للتعامل مع حركة التبشير هذه. وأخيراً اهتدينا إلى المواجهة الفكريّة وتعرية الزيف والتزوير فى التوراة والإنجيل،** ولاقى هذا الاتجاه ترحيباً وحماساً من كل القيادات التى كانت مجتمعة، **وبدأنا البحث عمّن يقوم بهذا العمل** العظيم الذى سوف يعلى كلمة الحقّ ويُذهب كيد الكافرين. لم أكن أتوقع ولو بنسبة ضئيلة جداً **أن أكون أنا المرشح لهذا** العمل، ليس لعدم كفاءتى ولكن لما يعلمه الجميع عنّى من كراهيّتى الشديدة للمسيحيّين. وبعد فترة صمت مريبة، مرّت خلالها الدقائق كساعات من ليل الشتاء الطويل، انطلق صوت الأمير معلناً الشخصيّة التى اختارها للقيام بهذا العمل، وعندما سمعت أنّه أنا كدت أفقد وعيى وانتابنى شعور بالغيظ والتمرّد. **إذ كيف يطلبون منّى مثل هذا الأمر الذى بالطبع سيتطلب قراءة كتب النصارى واليهود؟!** لكن قضى على غيظى وأخمد تمرّدى صوت خافت من الأمير قائلاً: هذا أمرٌ... وما عليك إلا أن تنفذ إن كنتَ تؤمن بالله واليوم الآخر، وذكر الآية التى تقول: **"ما كان لمؤمن ولا لمؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" (الأحزاب ٣٦).**

حاولتُ اقناع الأمير بتكليف أحد غيرى للقيام بذلك إلا أنّه رفض وقال: إننى أشعر بأنّك أفضل مَن يقوم بالعمل هذا، ولو أنك أتممته جيّداً ستكون قد أنجزت مهمتين فى وقت واحد. الأولى: أنّك تكون قد قدّمتَ لنا ولكل مسلم بل ولكل العالم **حقيقة كانت ولا تزال غامضة عن أذهانهم،** والثانية: أنّك **سوف تجنى ثمار هذا العمل الرائع لأنّه سوف يتم ترجمته** وبيعه فى كل أنحاء العالم **لأهميّته،** وبذا تكسب مبالغ كبيرة بالحلال الطاهر. دفعنى حديثه هذا إلى **استعجال نوعيّة وموضوع البحث**... قال الأمير: إنّ البحث ينقسم إلى قسمين... الأول: **إثبات أنّ نبوة محمد رسول الله ثابتة من التوراة والإنجيل،** تصديقاً لقوله: **"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ"**[1]. القسم الثانى: **إثبات أنّ التوراة والإنجيل المتداولين اليوم ليسا هما الكتابين اللذين انزلهما الله وإنّما تمّ تحريفهما وتزويرهما.** هذا من خلال البحث فى الاختلافات والتناقضات الموجودة فيهما.

١ سورة الأعراف الآية ١٥٧

قبلتُ تلك المهمة على مضض وقلت للأمير: إنّ هذا يتطلب منّى أن **أشترى توراة وإنجيلاً وأقرأهما..!** قال: نعم... لا بدّ أن تفعل ذلك. فذهبنا فى صبيحة اليوم التالى إلى القاهرة، وقطعنا شارع الجمهوريّة نبحث عن مكتبة تبيع هذه الكتب... وجدنا المكتبة ولكن كان من الصعب أن ندخل بملابسنا التقليديّة تلك المكتبة لأنها مثيرة جداً، وقد يطلبون حضور الشرطة اعتقاداً منهم أننا جئنا للتخريب. وجدنا رجلاً يسير بالشارع فسألناه عن اسمه وطلبنا منه أن يشترى الكتاب فوافق... **سلّمنى الأمير الكتاب** وانصرفنا متوجهين إلى منزلى جنوب القاهرة.

كنت خلال السفر الذى استغرق أكثر من ساعتين ونصف **أحاول التخلص من الكتاب بأى وسيلة، فتارة أتركه خلفى، وتارة أتعمد نسيانه، وفى كل مرّة كان الأمير يحضره لى وينبهنى إليه، أخيراً وصلنا إلى منزلى وبعد فترة غادر الأمير منزلى إلى مدينته... من هنا بدأت المتاعب مع التوراة والإنجيل.**

كان **أول يوم أخذت فيه الإنجيل** من أصعب الأيّام علىّ، فقد **كان لدىّ انطباع أنّه ليس من عند الله، وأنّه سوف يجلب لى الشياطين بالبيت** ولن أقدر أن أصلى، فوضعته خارج غرفة نومى خوفاً من إزعاج الشياطين، وطاردنى هذا الهاجس أيّاماً عديدة، حتى أنَه كلّما سمعت صوتاً بالمنزل **اعتقدت أنّ الله يعاقبنى على اقتناء هذا الكتاب، فكنت لا أدخِله داخل غرفتى أوقات الصلاة حتى تستطيع الملائكة أن تدخل منزلى.**

استمر هذا الخوف والقلق فترة من الوقت أدركت بعدها أننى لم أقتن هذا الكتاب بإرادتى بل أنا أنفذ إرادة الله من خلال طاعة الأمير الذى أوصى النبىّ بطاعته فى حديثه: **"مَن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومَن عصى أميرى فقد عصانى"** أخيراً أدركت أننى إنما أنفذ أمر الأمير الموصى بطاعته من قِبَل الله، وعليه فلا ضير مِن أن أضع الكتاب في غرفتي والله سيقوينى. كانت كل الوسائل ميسّرة لى مِن قِبَل الجماعة، **أتقاضى ٥٠٠ جنيه شهريّاً نظير تفرّغى لهذا العمل**. وكلّ مرّة كنت فيها أحاول تجاهُل هذا الأمر يتراءى لى الحديث الذى يقول: **"مَن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومَن عصى أميرى فقد عصانى"** فأسارع قائلاً: لا يا ربّ لن أعصيك أبداً وأستغفر الله ثلاث مرّات ثم أقوم للصلاة. ولم يكن يشغلنى أى شيء عن إتمام هذا العمل. وعندى الكثير من المراجع التى تساعدنى على إخراجه فى أفضل ما يمكن، **ولدَىّ من الخبرة فى أمور النصارى الكثير**.

قررت بينى وبين نفسى أن أبدأ رحلة المتاعب هذه، لكن ما أقلقنى هو أننى لم أكن أدرى من أين أو كيف أبدأ. لم يكن لدىّ طريق واضح المعالم للتعامل مع شِقى البحث. **فمثلاً بخصوص إثبات نبوّة محمد كنت قد توقعت أننى سأجد نفس الاسم "محمد" فى التوراة والإنجيل.** وفى أضعف الأحوال قد أجد أحمد أو محمود. وفى الحقيقة لم أكن أعلم كيف أبدأ ولا من أين أبدأ، لم يكن الطريق بالنسبة لى واضح المعالم من حيث كيفيّة تناول البحث، فعَن أى اسم فى التوراة سأبحث...؟ عن محمد ؟ أم محمود ؟ أم أحمد ؟ أم... ؟ أم... ؟ أخيراً التبس علىّ الأمر فقررتُ الانتقال إلى القسم الآخر من البحث... وهو **البحث عن التناقضات والاختلافات التى تثبت أن التوراة والإنجيل ليسا من عند الله...** لقد فشلتُ فى تحديد معيار ثابت أو قالب معيّن على أساسه أقيس كل ما فى التوراة والإنجيل... فإن توافقا، صحّ الكتابان [التوراة والإنجيل]. وإن تناقضا أكون قد وصلتُ إلى ما أريده... لقد دفعنى ذلك إلى الشك فى مقدرتى على إتمام ذلك البحث ممّا أثار
حفيظتى وأشعل حماسى، **فقررت التركيز الشديد للوصول إلى الهدف لأننى ما اعتدتُ أن أفشل فى أىّ مهمّة كنت أكلَفُ بها.**

كنّا نلتقى أنا والأمير مرّة كل شهر، نتشاور ونتحاور حول موضوع البحث، وفى كل مرّة كنت أطلب منه العدول عن قراره وإسناد ذلك العمل لغيرى وأنا على أتم الاستعداد أن أتعاون معه، لكن الأمير كان لديه إصرار غريب على أن أقوم أنا بعمل هذا البحث. صلّيتُ ركعتين استخارة لله، وتملكتنى جرأة غير عاديّة، وقررتُ البدء فى قراءة الكتاب ولكن بدون تحديد أى نظام أو اختيار أى سند يعيننى على الوصول للهدف. **بدأت بسفر التكوين ولم أكن أدرى ما الذى أبحث عنه، وجدتُ أسماءً غريبةً أقرؤها لأول مرّة فضقت بها وألقيتُ بالكتاب بعيداً فى أحد أركان غرفتى بطريقة عصبيّة قائلاً: إنّ هؤلاء اليهود والنصارى أغبياء...!! كيف يقولون عن كتاب يتكلّم بهذه الطريقة وبتلك الاسماء أنّه من عند الله...!! إنّهم مجانين، وتوقفتُ عن القراءة.**

بعد يومين عاودتُ القراءة ، ولكننى قررتُ عدم قراءة سفر التكوين لما فيه من أسماء وألفاظ صعبة الفهم واسترسلتُ فى القراءة، و**لقد أعجبتُ بما هو مدوّن فى سفرى الخروج والعدد وأيضاً التثنية حيث وجدتُ الكثير من الأمور التى تتعلّق بموسى وفرعون وبنى اسرائيل مذكورة بالتفصيل الذى يشبع رغبتى**... أنهيتُ قراءة العهد القديم (التوراة) فى شهرين ولكن بدون تركيز. أعدتُ قراءة التوراة ثانية **وكنت أبحثُ عمّا ينتمى لمحمد أو أحمد أو محمود بصِلةٍ ولم أجد شيئاً. تطرقتُ الى العهد الجديد (الإنجيل) وقرأته كاملاً** لكن لم يقدنى إلى شىء، فضقتُ ذرعاً بهذا البحث وكانت تنتابنى شبه عصبيّة نحو الأمير الذى أمرنى بذلك، وفى آخر زيارة له **أخبرته أننى لم أجد أى خيط يمكن أن يساعدنى على إتمام البحث فقد قرأتُ التوراة والإنجيل ولم أجد شيئاً**.

أخبرنى الأمير بأن هناك **كتاباً كنّا نتدارسه فى الخارج** سوف يساعدنى كثيراً فى بحثى وهو: **"إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى"**، بحثتُ عن هذا الكتاب فى مكتبتى فوجدته، **وللحقيقة كان هذا الكتاب ذا قيمة عظيمة لنا عندما كنّا ندخل فى مناقشات مع المسيحيّين لإقناعهم بالإسلام، إذ كان يحتوى على نصوص خاطئة من التوراة والإنجيل كنّا بعرضها على المسيحيين يقبلون الإسلام، وتكرر هذا مع ثلاثة أشخاص.**

بدأت أنظم طريقة البحث مستعيناً بعدّة كتب بمعاونة الأمير مثل: **المِلل والنِحل للشهرستانى & الفصل فى المِلل والأهواء والنِحل لابن حزم وبعض كتب التاريخ والسيرة، وكلّها تهاجم المسيحيّة، أخذت كل النصوص التى ذكرها ابن حزم وقال إنّها تناقض بعضها البعض،** وبحثت عنها فى الكتاب الأصلى، وكنت كثيراً ما أجد النصوص إمّا مذكورة لكن بنصوص مختلفة أو منسوبة لأشخاص مختلفين، ولا أخفى سراً أننى وجدت كثيراً من النصوص التى بها اختلافات. **لكن لو أخذنا هذه النصوص كحجّة على عدم صحّة التوراة، فعلينا أن نقبل مثيلاتها فى القرآن ويكون القرآن أيضاً من عند غير الله ! [قمتُ فيما بعد بالردّ على ما كنت أعتقده تناقضاً واختلافاً فى بحث تحت عنوان "الردعلى ابن حزم"]** كنت أبحث بإخلاص وبمحبة غامرة لله وللرسول، لم أكن مدفوعاً بفكر عنصرىّ بل **كان الدافع هو الانتصار لله ولدينه الحنيف، وقد لَفَتَ اهتمامى بالكتاب المقدّس انتباه المجموعة الصغيرة التى أنا أميرها.** وكانوا دائمى الأسئلة عن سبب ذلك و**كنت كثيراً ما ألجأ إلى الكذب عليهم لأنّ ذلك ضرورة** فكنت أبرّر ذلك بأننا نتقابل مع شباب مسيحيّين ندعوهم للإسلام ممّا يحتّم علينا **ضرورة** معرفة ما يقولون.

بعد أن تعثّرت محاولاتى للبحث **عن مدخل لهدم التوراة** من خلال وجود الاختلافات والتناقضات، قررتُ أن أحاول فى الشِق الثانى من البحث وهو **إثبات نبّوة محمد من خلال التوراة والإنجيل لتحقيق مصداقيّة آية سورة الأعراف... فتّشتُ كثيراً فى كتاب رحمة الله الهندى** ووجدتُ ما أصبو إليه وانتفضتُ فرحاً بما وجدتُ...! **وشعرتُ أننى أخيراً وجدتُ ضالتى،** صليتُ ركعتين شكراً لله على أن هدانى إلى هذه النصوص، **وبدأتُ فى تدوينها بالترتيب كما يلى:**

(تك ١٧: ٢٠) ، (تك ٤٩: ١٠) ، (تث ١٨: ١٨-٢٠) ، (تث ٣٢: ٢١) ، (تث٣٣: ١-٣) ، (أشعياء ٤٢: ٩) ، (إشعياء ٥٤: ١-٣) ، (إشعياء ٦٥: ١-٢) ، (مزمور ٤٥: ١-٣) ، (مزمور ١٤٩: ٣) ، (دانيال ٢: ٣١-٣٢) ، (مت ٣: ٢) ، (مت ١٣: ٣١) ، (مت ٢٠: ١) ، (مت ٢١: ٣٣) ، (يو ١٤: ١٥) ، (رؤ ٢: ٢٧).

لم تكن تلك هى كل **النصوص التى ذكرها رحمة الله الهندى وزعم أنّها إثبات لنبوّة محمد،** بل كانت هناك نصوص أخرى قمتُ باستبعادها لضعف دلالتها، كان تعاملى مع هذه النصوص فى غاية التدقيق والموضوعيّة، لأن ذلك كان شأننا كجماعة مؤمنة فريدة على ظهر الأرض، فلم نكن نقبل أى نص من أى فرد بدون دليل ودليل صادق موثوق فيه، **لا أخفى أنّ هذه النصوص من حيث الظاهر كانت مغرية لأى مسلم ليقبلها** لكن بتدقيق، وهذا حال المسلمين الأصوليين فقد يُفاجأ بعدم صحّة الاستنباط المُستنتج من الدليل، لذا **قمتُ بتجميع كل الكتب التى رأيتُ أنّها قد تساعدنى فى بحثى هذا.**

بدأتُ أرسمُ مستقبل حياتى بعد نجاحى فى هذا البحث، وكم سأكون قد قدّمت خدمة لله وللرسول إضافة إلى الربح المادّى الذى ينتظرنى والذى بدأت معالمه عندما ذهبتُ أنا والأمير إلى [مكتبة أنصار السنّة] وعرضناعليهم فكرة الكتاب التى نالت إعجابهم، بل إنّهم **قد طلبوا منّا فصلاً واحداً فقط من الكتاب وهم سيشترون حقوق طبعه، كل تلك الأحلام كانت تراودنى... لكن كان يطغى عليها انتصارى لدين الله.**

أخذتُ أعيد قراءة الكتاب المقدس وأصبَحَت علاقتى به على أحسن وجه حتى أننى أدمنتُ على قراءته، وكنت أطلب الدليل تلو الآخر **وأحاول أن أثبت بالحجج والبراهين أنّه ينطبق على محمد، ولكن كانت المفاجـأة غير سارة**، وربّما كان سبب ذلك أننى كنتُ مبالغاً فى تدقيقى، ليس لغرض المبالغة فقط بل للجزم بصدق نبوة محمد.

كنت أستعين **بكتاب ياقوت الحموى (معجم البلدان)** عندما تعرّضتُ لاسم مدينة تُسمى فاران، لأعرف اين تقع وما اسمها الحالى. وأستعين أحياناً **بمعاجم لغويّة مثل لسان العرب، ومعاجم عبريّة** لأعرف ما معنى شيلون. كنت أريد أن أخرج كتاباً لا تَرِد فيه كلمة واحدة تسمح لأحَد أن يطعن أو يحتَج عليها. لكن الرياح قد أتت بما لا تشتهى السَفِنُ... إذ **بدأ الانهيارُ التدريجىّ للنصوص**... واحداً تلو الآخر!! انهار أمامى الدليل الأول، بمعنى أننى لم أوفق فى إثبات أنّ ما جاء بسفر التكوين من نصوص سبق ذكرها تنطبق على محمد لعدّة أسباب لا مجال لذكرها الآن، إذ قد كتبتها فى كُتيّب منفرد تحت عنوان: [**الحق المكتوم**] وسجلتُ في هذا الكتيّب كل الأدلة، وكيف كنت أستدل بها. وكيف اكتشفتُ أنّها لا تدل علىشخص محمد. لذلك لن نتناول هنا التعليق على هذه النصوص.

لقد انتهيتُ من دراسة تلك النصوص ولم اجد فيها ما يدل على ما كنت أبحث عنه. امتزجَت لدىّ مشاعر الحزن والأسى بالقلق والإضطراب، **لكن لم يتبادر إلى ذهنى مجرّد التفكير فى أن يكون محمد ليس نبيّاً**، بل **كان تعليقى الذى واسيتُ به نفسى هو أننى قد فشلتُ فى الربط بين الأدلة وشخص الرسول. قررت أن أعيد المحاولة ثانية من خلال دراسة كتب أخرى غير إظهار الحقّ**، كان لدىّ كتاب اسمه **دلائل النبوّة** وكتب أخرى مثل **معجم البلدان وإعلام الموقعين والموسوعة العربيّة المُيسّرة** وكنت أحاول بكل جهدى لكى لا أفشل، فالفشل بالنسبة لى يعنى الدمار الكامل لتاريخ حياة مملوءة بالمشقات والضيقات فكيف يصبح ذلك سراباً؟!

لم تكن المحاولة الثانية أفضل من الأولى بل على النقيض من ذلك، فلقد اكتشفتُ فى المرّة الثانية أشياء لم أكن أعرفها فى المرّة الأولى، ولم تكن أشياء فى صالح البحث بل كانت ضدّه، كنتُ بين لحظة وأخرى أسترق نظرات **أجول** بها هنا وهناك **متفرساً فى الكم الكبير من الكتب والمراجع التى تملأ مكتبتى وأجدنى أحياناً أخاطب نفسى: هل من المعقول أن تكون كل هذه الكتب خادعة لنا وتقدّم لنا شخصيّة وهميّة...؟! إن صحّ ذلك فلا يستحق إله الإسلام منّا أن نعبده، لكن لم أكن أسترسل فى ذلك بل على الفور كنتُ أردد: أستغفر الله العظيم وأنهض متوضئاً لأصلى ركعتين أطرد بهما إبليس.**

فجأة وبدون مقدمات وجدتُ نفسى أهمل التفكير فى موضوع البحث و**أعاود قراءة الكتاب المقدّس للمرّة الثالثة، وفى كل مرّة كنت أقرأ فيها الكتاب المقدس كنت أجد حلاوة عجيبة حتى أننى كنتُ أخشى على نفسى من سِحر هذا الكتاب** الذى قد يصيبنى نتيجة القراءة المستمرة فيه، لأننا كنّا نقول أن النصارى سحرة ويستمدون سحرهم ممّا يسمونه التوراة والإنجيل، إذ **كان يشدّنى إليه بطريقة عجيبة لا أستطيع مقاومتها**.

كان الأمير يزورنى بانتظام، وفى كل مرّة كنت أتوقع منه أن يضيق منى لعدم عمل أى شيء، وتوقعتُ أن يعفينى من البحث، لكنّه كان فى كل مرّة أكثر إصراراً من سابقتها على أننى الأفضل لعمل هذا البحث. عاودتُ القراءة فى إنجيل متى وتعثرتُ من مطلعه فى الأصحاح الأول عندما **رأيتهم يردّون نسب المسيح إلى داود، فقلتُ ما هؤلاء إلا مجانين حقاً وكنت أتعزّى بذلك وأحتفظ ببعض الأمل فى أن أجد ما أريد، سحَرَنى إنجيل متى فى أصحاحاته الرابع والخامس والسادس، ورغم أننى قد قرأته مرّتين من قبل إلا أننى فى هذه المرّة وجدتُ نفسى وكأنى أقرأه للمرّة الأولى** وشعرتُ كأنّ يداً تمتد نحو رأسى لتربت على ذهنى ولسان حالها يقول: **أما آن الأوان لتفهم ما تقرأ ولا تنشغل بالخطأ والصواب...** وفى نفس الوقت كنت أشعر وكأنى أغيب عن الوعى وأحسُ بقشعريرة خفيفة لا أدرى سببها.

لقد وجدتُ الإنجيل يتكلم عمّا نفعلُه مع المسيحيين وكأنّه يعيش بيننا، وجدته يتكلم عن الاضطهاد والتعيير والقتل الذى كنّا نحسبه طاعة لله!! فقلت عجيب أمر هذا الإنجيل كيف علم بما نقوله وما نقوم به إزاء المسيحيين، ربّما علموا بذلك وقاموا بتدوينه حديثاً... كنّا نفسرُ محبّة المسيحيين وتواضعهم على أنّها جبن

وخوف منّا نحن المسلمين لأنّهم قليلون مستضعفون، وكان لا بدّ أن ينطبق عليهم أقوال الله: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**[1]**.** لكننى وجدتُ نصوصاً تحثهم على المحبة والطاعة والخضوع ومحبّة الأعداء، فكيف يمكن لإنسان أن يكتب سبب مذلته بنفسه؟ وللأمانة كنت **كلما قرأتُ أمر الله للمسيحيين أن يحبوا أعداءهم طافت بذاكرتى معاملتى السيّئة لوالدى ووالدتى،** كنت أتفنن فى القسوة عليهما، ولم يكن يهدأ لى بال حتى أرى علامات الألم على وجوههم وأتمادى فى القسوة حتى أري ثمارها... ذات مرّة مرضتُ ودخلتُ إحدى المستشفيات و**أجريت لى عمليّة جراحيّة خطيرة وأراد والدى أن يرانى ليطمئن علىّ فرفضتُ وقلتُ إنّه كافر لا أريد أن أراه، كذلك والدتى** التى كانت تتعرّض لأبشع من ذلك، حتى أنّها كانت ترسل لى الطعام عن طريق طرف آخر حتى لا أرفضه و**كانت تقف فى الشارع** أمام شِبّاك غرفتى بالمستشفى ساعات طويلة تلفحها حرارة الشمس الحارقة علـّها تسترق نظرة **لترانى** فيها، كنت كلما تذكرتُ ذلك سالت الدموع من عينىّ أسفاً على معرفتى تلك بالله، ولكن **الذى كان يعزينى وقتها هو تذكر ما فعله أبو عبيدة بن الجرّاح وابو بكر الصدّيق بوالديهما! ومصعب بن عمير بوالدته! فيهدأ بالى قليلاً... !**

انتهيتُ من إنجيل متى ولكن كلماته لم تنته من ذاكرتى واستمرّت تطاردنى ليل نهار كلما هممتُ بفعل شىء شرير، **وقرأتُ باقى الأناجيل والرسائل ووجدتُ فلسفة وبلاغة تفوق فلسفة وبلاغة القرآن... ! وحيث أنّ الإنجيل يسبق الإسلام ب ٦٣٠ سنة فكيف نقول: إنّ القرآن لا يماثله شىء فى البلاغة...؟!**

فى إحدى ليالى الشتاء القارس كنت أقرأ إحدى السوَر القرآنيّة عسى أن أتخلّص ممّا علق بذهنى من كلمات إنجيل متى... فى الحقيقة كنتُ وبقيّة الإخوة نغار أو نحقد على المسيحيين لأنّهم كانوا قريبين من الناس ويكسبون ودّهم ومحبتهم بسهولة، فى الوقت **الذى كنّا نحن عاجزين عن إقامة مجرّد علاقة يتوافر لديها الحد الدنى من التسامح الذى يمكننا من دعوتهم للإسلام،** وذلك كان يسبب لنا عقبة شديدة كثيراً من الأحيان، إذ أن طريق دعوتنا لا يعطينا أى قدر من التسامح، الذى به نقدر أن نبنى أى نوع من العلاقات، التى تقربنا منهم ثم اجتذابهم للإسلام، فلقد كانت كل حياتنا عنف وقسوة وإرهاب. وليس هذا بمستغرَب فلم يكن سلوكنا نابع من ذواتنا بل إننا لو لم نفعل ذلك، فلسنا من الله فى شىء، **إذ أن الله قد حدّد لنا فى القرآن والسُنّة، كيف نعامل الكفّار على اختلاف كُفرهم، سواء كانوا أهل كتاب أو مشركين أو متأسلمين،** ففى أهل الكتاب قال: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**[2]

هذا بخصوص أهل الكتاب، أمّا بخصوص الكفّار من نوعيّات أخرى كمسلم لا يصلى أو لا يزكّى أو لا يُطلق لحيته أو يرتكب معصية ولا يتوب عنها فقال: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"**[3] وبخصوص الأهل والأقارب قال: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"**[4] وهناك آية أعم وأشمل تقول: **"لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"**[5] **ولو أضفنا إلى كل تلك الآيات الحديث الصحيح الذى يرويه البخارى ومسلم والترمذى عن ابن عمر أنّ محمداً قال: "لا تسلموا على أهل الكتاب ولا تردّوا عليهم السلام وإن قابلوكم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه"**[6]

---

١ سورة البقرة الآية ٦١

١سورة المائدة الآية ٥١

٢ سورة النساء ١٤٤

٣ سورة التوبة ٢٣

٤ سورة المجادلة ٢٢

٥ حديث صحيح

وهناك أضعاف هذه الآيات التى كانت تحكم علاقتنا بالأهل والأصحاب وغير المسلمين. لم يكن لنا نحن أى دخل أو أى سلطة فى تحديد هذه العلاقة، وببساطة **لأنّ الفكر الإسلامى عامة والقرآن خاصة لا يعطى للمسلم مساحة لاستخدام العقل، لكن العكس كل من يستخدم عقله للتأمل فى آية أو حديث يُعَد كافراً**، إذ عليه أن يقبلها كما فسرّها محمد. وإن لم يقُل محمد فيها قولاً، فليسكت عنها ويعتبرها من المتشابه الذى لا يجوز الاقتراب منه، ومن هنا كان الحديث الصحيح يرويه البخارى عن أبى عباس: **"من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.**

تُرى بعد هذا الكم من النصوص القرآنيّة والأحاديث الصحيحة هل كان بإمكاننا أن نكون مهادنين أو لطفاء أو موادعين لكل مَن ليس على شاكلتنا؟ بالطبع لا... ولو حدث فنحن كما يقول القرآن نكون قد ركنّا إلى الذين ظلموا **"وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ"** نتيجة لذلك كله، كنت أتفرّس والغيظ يملأ قلبى عندما كنت أمُرّ على أى نص فى **الإنجيل يتحدث عن المحبة والعفو والغفران والتسامح، حتى أننى كثيراً ما كنت أشعر بالخجل فى داخلى وأنا أقرأ هذا فى الإنجيل الذى نتهمه بالتزوير**. ودعنى أقول: **إذا كانوا هم قد زوّروا واكتسبوا محبة الناس بشهادة المسلم والكافر، فلماذا نحن الذين لم نزوّر شيئاً نفتقد هذا...؟! بالتأكيد هناك شيء غير صحيح.**

كنت أحاول جاهداً أن أطرد ذلك الشبح من الأفكار الذى بدأ يطاردنى بهذا الفكر: ماذا لو لم تستطع أن تصل إلى نتيجة فى بحثك؟ لدرجة أننى كلما تطرقت إلى هذا التفكير، صرختُ بأعلى صوتى قائلاً: **استغفر الله العظيم، أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنّ محمداً رسولُ الله**، وأسارع للصلاة لأتخلص من هذه الهواجس ولسان حالى يقول: كيف؟! لا.لا..لا... **محمد رسول الله حتى ولو لم أجد ما يؤكد ذلك فى التوراة والإنجيل**، وبمرور الأيام بدأت المشكلة تتفاقم أمامى، إذ بدلاً من أن أفكر فيما يثبت صدق نبوة محمد فى التوراة والإنجيل، وجدتُ نفسى أمام مشكلة جديدة وهى: **كيف ألغى تأثير هذا الكلام العذب الذى عرفته من التوراة والإنجيل، أو كيف أقدر أن أثبت أنّ ما علمته ليس من عند الله بخصوص التوراة والإنجيل. إنّ كل الأفكار المدوّنة فيهما جيّدة ويستحيل أن تكون من صنع البشر إذ كيف يقدر البشر أن ينفُذوا بهذه الطريقة إلى أعماق المستقبل ويتكلمون منذ ألفى عام عن أمور تحدث الآن؟ فلو سلـّمنا بأن هذا من صنع البشر لقلبنا كل الموازين الإلهيّة ووضعنا الإنسان معادلاً لله فى الفهم والحكمة، ونحن نعلم أنّ الله ليس له نظير فهو "السميع العليم".**

وجدتُ نفسى فجأة أقرأ فى سفر المزامير وهو المعرف لدينا بالزبور ثم انتقلت لقراءة سفر الأمثال **وقد حفظتُ بعض الآيات من مزمور ٢٣ ومزمور ١٤٣ وكنتُ أرددها فى الصلاة**، وكلما سمعنى أحد يُعجَب جداً بها ويطلب منّى أن أكتبها له ليدعو بها.

تكررت محاولاتى فى البحث عن أدلّة تتعلق بنبوة محمد، وعدم صحة الكتاب المقدّس، وكلـّها باءت بالفشل، لكنها لم تتركنى وشأنى بل أحدثت لى قلقاً بسبب الكثير من الأفكار والشكوك بداخلى. حاولتُ أن أتظاهر بنسيان تلك الشكوك لكنّها كانت أقوى منّى لأننى أحب الله أينما كان... لكن **خلفيّتى وحبى لدينى كانا يمنعانى من مجرد التفكير فى أن يكون دين الإسلام ليس هو طريق الله الذى رسمه للبشر**. بدأت حياتى تضطرب وأفكارى لا تهدأ والقلق ينتابنى ولم أقدر أن أنام كما كنتُ من قبل. ولأول مرّة وقفتُ دقائق معدودة وأنا أصلى الفجر وكنت أقرأ سورة الإسراء فإذا بى أتوقف عن القراءة وأشرد بذهنى قائلاً: **تُرى ماذا سيكون موقفك لو فرضنا أنّ الإسلام ليس هو الطريق المؤدى إلى الجنـّة؟** حاولتُ الهروب من الإجابة لكن لم استطع، لم أكمل الصلاة وانخرطتُ فى بكاء شديد حتى غلبنى النعاس فاستلقيتُ على السجادة حتى أيقظتنى والدتى.

ذهبتُ إلى العمل وأنا شارد الذهن لا أدرى إلى أين أسير ولا إلى مَن أتكلم، وبعد عودتى إلى المنزل **وجدتُ نفسى مدفوعاً بقوة للقراءة فى الإنجيل** فقرأتُ فى إنجيل يوحنا من الأصحاح الأول حتى الأصحاح الخامس عشر، **وجدتُ فيه كل ما يمكن أن يُقال، مِن بلاغة وتعابير لغويّة غاية فى الدقـّة والتناسق** خاصة عندما تحدّث عن الخراف والراعى والكرمة والكرّام والأغصان المثمرة وغير المثمرة التى يجب أن تُقطع وتُلقى فى النار.. فصرخت بصوت عال قائلاً: **يا ربّ ارحمنى أنا عبدك**، قل لى أين أنت.. أرجوك، وإلى أى فئة تنتمى، **هل أنت مع النصارى أم اليهود، أم المسلمين؟** من فضلك تحنن علىّ فأنا عبدك، على عهدك ووعدك ما استطعت، أعترف بفضلك علىّ، لا

أقدر أن أقف أمامك، ولا يليق بك أن تقف ندّا أمام نفخة نفختها من روحك، أنت الله الذى يقدر وأنا العبد الذى لا يقدر إلا إذا سمحتَ له. أنت الله الرحمن الرحيم وأنا عبدك بلا حول ولا قوّة، ناصيتى بيدك وكل أمورى لديك، لقد أحببتك من الصغر، بذلتُ نفسى طمَعاً فى جنتك وحبّا فيك. لم أبال بسجنٍ ولا بعذابٍ ولا بكل المسكونة إن وقفَت أمام طريقى إليك... لماذا تعاملنى هكذا، كنتُ أسيرُ على آثار دربٍ أعلمنا إيّاه نبيّك، وها أنا أجد نفسى عاجزاً عن أن أستمر فى الطريق، **المسلمون والنصارى كلاهما... يقول إنّك إلهه، لكن لا أدرى أيّهما على صواب وأيّهما على خطأ**. يا ربّ هل أقسم لك إنّى أحبك... كلا... أنت تعلم! فكم تحملتُ من الصعاب فى مسيرتى نحوك، تركتُ دراستى، وأهلى، وأصدقائى، تغرّبتُ كثيراً وسجنتُ كثيراً وعُذِبتُ كثيراً لأجلك، فلماذا لا تتجاوب معى؟ **إن كنتَ أنت إله المسلمين فاخلع من فكرى كل شىء عدا الإسلام وإن كنت أنت إله النصارى فاعطنى بصيصاً من نورٍ أهتدى به.**

كنت لا أنام الليل إلا سويعات قليلة وكل تفكيرى ينحصر فى: **ماذا لو وجدتَ أن الإسلام ليس طريق الله؟**...وأنّ طريق الله هو من خلال التوراة والإنجيل؟... هل ستسلك مثل ما يسلك النصارى؟... كنتُ عندما أفكر فى ذلك الأمر أشعر بقشعريرة شديدة، وكأننى تذكرتُ شيئاً أدان عليه من الله والناس، وذات يوم تخليتُ عن الخوف والشكوك وإذا بى أخاطب نفسى بالقول: ماذا تريد؟... **كفاك مهاترات**، أنت الآن لستَ كما كنتَ من قبل. أمامك طريقان كل منهما يبدو مستقيماً فلا تضيّع الوقت **وابحث جاهداً عن طريق الله، ليس المهم أين** يكون عند اليهود **أو النصارى أو المسلمين، المهم أن يكون طريق الله...** هذا إن كنتَ حقاً تبحث عن الله... هذا قدَرُك ولا بدّ أن تُسلِم لقدَرك، **ثق أنّه بقدر إخلاصك سيكون تجاوب الله معك، إنس أنّك مسلم وابحث من جديد ماذا يمنعك...؟ فقلتُ: يا ربّ... لا شىء يمنعنى، لكن قُد خطواتى أنتَ وهبنى قوّة لأنّ هذه تجربة صعبة... وإن لم تعيننى فسوف تتخبطنى الشياطين وأمكثُ فى اضطراب وحيرة بلا سند.**

يا ربّ أرجوك... ساعدنى، وأعدُك أن أتبعُك حيثما كنت، حتى لو كنتَ عند النصارى، الذين لا أطيق رؤيتهم. شعرتُ بعد ذلك بهدوء عجيب يسيطرُ على كلّ تفكيرى وكيانى... **ولأول مرّة أجد نفسى أفكر بعقلانيّة وبلا عصبيّة**: ترى ماذا يحدث لو أننى توجهتُ ببحثى نحو هاتين القضيّتين: **إنّ النصارى قد كفروا لسببين الأول: أنّهم قالوا إنّ المسيح هو عيسى ابن مريم. والثانى: أنّهم يقولون إنّه مات على الصليب ودُفن فى القبر ثم قام، هذا للتكفير عن خطايا الناس. ماذا يمنع أن أتحقق من مدى صحّة كل منهما بمفهوم إسلامى، أى أرى ماذا قال علماء ومفسرى الإسلام بخصوص هاتين القضيّتين...؟**

أولاً : بدأتُ أبحث فى كتب التاريخ الإسلامى والسيرة والتفسير عن كل ما يتعلق بخصوص المسيح وهل تحققتْ فى المسيح كلُ صفات الله المذكورة فى القرآن؟ كانت مصادر بحثى هى الكتب الصحيحة الخالية من الوضع والإسرائيليات، **مثل تفسير ابن كثير وتاريخ الإسلام للذهبى والبداية والنهاية لإبن كثير وكتاب الملل والنِحَل للشهرستانى والفصل فى الأهواء والنِحَل للعلامة ابن حزم المعروف بأبى محمد والأسفار المقدّسة قبل الإسلام والنصرانيّة بين العقل والنقل... وكانت نتيجة البحث أننى وجدتُ صفات للمسيح لم يتناولها المسيحيّون أنفسهم فى كتبهم، ومِن هذه:**

[١] القدرة على الخلق:

قال القرآن فى سورة الأنعام الآية ١٠٢**:**

ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

وفى سورة الحجر الآية ٨٦:

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيم

وفى سورة الحج الآية ٧٣**:**

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ

وفى سورة النحل أيضاً الآية ٢٠:

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

وفى سورة النحل كذلك الآية ١٧:
أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ

هذه بعضٌ من النصوص التى تقصرُ وتحصُر الخلق إلا لله، بل إنّ الله عندما أراد أن يقارن ذاته بالآلهة الأخرى استخدم خاصيّة الخلق واعتبرها ميزة تجعله فوق كل الآلهة. وباعتراف صريح وواضح من القرآن نعلم أن المسيح كان يخلق؛

ففى سورة آل عمران الآية ٤٩ قال المسيح عن نفسه:
وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

وقال أيضاً فى سورة المائدة الآية ١١٠:
إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ

وعندما قرأتُ ذلك قلتُ فى نفسى: إنّ الله أعطى المسيح هذه القدرة، ولم يكن يمتلكها من ذاته... ولكن عدتُ أقول: حتى ولو أنّ هذا كان بسماح من الله، فيكفى أن يكون المسيح هو الوحيد الذى أعطاه الله ليصير معادلاً له فى خاصيّة من خصائصه اللاهوتيّة... ولو كانت كرامة، لكان محمد أولى بها...
بل إنّه قال عن محمد فى سورة النمل الآية ٨٠:
إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ
وهذه أبسط من الخلق. إنّ الله قد منع محمد من مجرد أن يعيد السمع للأصنج، وهو خير خلق الله وخاتم رسله. إنّ الله تحدّى الخلق، أن يخلقوا ذبابة وها هو يعطى المسيح القدرة على خلق الطير. ولا تقف المسألة عند حجم المخلوق كالطير، بل من حيث المبدأ لأنّ مَن يخلق القليل يخلق الكثير، وهذا لا يمكن أن يكون للناس من دون الله.

[٢] علـم الغيـب:

قال الله عن نفسه فى القرآن سورة النمل الآية٦٥:
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ

وقال فى سورة الأنعام الآية ٥٩:
وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ

ففى الآية الأولى **أسلوب قصر وحصر** أى أنّ كون علم الغيب محصوراً ومقصوراً على الله يجعل من المستحيل أن يشاركه فيه أحد. والآية الثانية لا نافية للجنس أى جنس المخلوقات التى يمكن أن تدّعى علم الغيب، إذ أنّ مفتاح الغيب عند الله وحده، **وقد حكى القرآن عن محمد أنّه كان يلوم كل من ينسب إليه علم الغيب إذ جاء فى سورة الأنعام الآية ٥٠:**

قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ

وقال لمعاذ عندما قال له إن شاء الله وشئت: أجعلتنى لله نداً والله لا يعلم ما فى السموات والأرض إلا الله؟

لكن بخصوص المسيح نجد كل الحواجز تُزال والمحظور يُباح وغير المستطاع للبشر مستطاع لديه. فيقول القرآن فى سورة آل عمران الآية٤٩ عن المسيح:

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

والعجيب أنّ المسيح فى كل تلك الصفات يتكلم بضمير المخاطِب، فلا بدّ وأنّ يكون الله هو المتكلم... ليس كما كان يحدث مع محمد فيقول له قُلْ... ولكن المسيح تفرّد بأن قال عن نفسه. وهذ يعنى أن ذلك كان بيده ولم يكتسبه من أحد.

وهناك فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير الجزء الثانى صفحة ٨٦ رواية شعرتُ بالخجل عندما قرأتُها إذ وجدتُ إقراراً لا يقبل الشك أنّ المسيح كان يمتلك قدرة غير عاديّة على الإخبار بالغيبيّات. ولطول هذه الرواية أنصح بقراءتها فى الشاهد المذكور.

[٣] يشفـى المرضـى:

قال القرآن أنّ الله وحده هو الشافى، مرّة على لسان إبراهيم ومرّة **على لسان محمد فيقول**: **"فإذا مرضتُ فهو يشفين"** والحديث الصحيح: **"اللهم لا شفاء إلا شفاؤك"**
والمسيح يقول عن نفسه فى سورة آل عمران الآية ٤٩: وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَص

[٤] يُحيـى ويُميـت:

الله وحده هو صاحب سلطان الحياة والموت، ولا يستطيع أحد أن يحيي ويميت.
فقال القرآن فى سورة الحجر الآية ٢٣:
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ
وفى سورة يس الآية ١٢:
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ
وفى سورة ق أيضاً الآية ٤٣:
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ

وبخصوص المسيح يحكى القرآن أنّه قال فى سورة آل عمران الآية ٤٩:
وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّه

ويروى ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية رواية صحيحة تثبت أن المسيح كان له سلطان أن يميت كما أنّ له سلطان أن يهب الحياة، والرواية باختصار: أنّ المسيح رأى امرأة تبكى على ابنة لها ماتت منذ زمن طويل فسألها: ما يبكيك يا امرأة؟ قالت: ماتت ابنتى وليس لى ولد غيرها. فقال: أرأيت لو أحييتها لك... أتريدين ذلك؟

قالت: نعم يا روح الله. فوقف المسيح على رأس القبر ونادى ثلاث مرّات على الصبيّة، ففى الثالثة قامت[1] تنفض عنها التراب وتكلمت مع أمّها. بعد ذلك طلبت من المسيح أن يعيدها للموت، فقال لها: عودى كما كنت. فانغلق القبر عليها وماتت."

[٥] القـدرة علـى الـرزق:

قال القرآن فى سورة الذاريات الآية ٥٨:
إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ

وهذا أسلوب توكيد أن الرزق من عند الله وحده. وقد وبّخ الله كل مَن اعتقد أنه يقدر أن يرزق الناس، أما بالنسبة للمسيح فقد حقق ذلك بذاته فقال ابن كثير: إنّ المسيح كان له كرامة أن يرزق مَن يشاء وتجلى ذلك عندما أطعم الخمسة آلاف نفس بقليل من الخبز والسمك.

[٦] ليـس كمثـلِه شـىء:

يقول القرآن عن الله فى سورة الشورى الآية ١١:
فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ

وبخصوص المسيح لا جدال أنّه ليس كمثله شىء وُلِدَ من غير رَجُل، وهو الوحيد الذى قيل عنه كلمة الله وروح منه، وهو الوحيد الذى ليس لإبليس سلطان عليه منذ ولادته، وهو الوحيد الذى كان يحيطه حجاب من دون سائر البشر، وهو الوحيد الذى امتلك صفات الله القدريّة

[٧] يقول للشىء كـن فيكون:

يصف القرآن فيما يعدد من صفات الله قائلاً فى سورة النحل الآية ٤٠:
إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ
ويقول فى سورة البقرة الآية ١١٧ :
بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ

هذه صفة فريدة وصف الله بها نفسه أنّه يقول للشىء كن فيكون وهى ليست لأى مخلوق، ولكن ابن كثير يقول فى كتابه البداية والنهاية أنّ ذلك تحقق للمسيح فى حادثة تحويل الماء إلى خمر.[2]

[٨] كـان عرشـه على المـاء:

يقول القرآن عن عرش الله فى سورة هود الآية ٧:
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ

---

١ ابن كثير فى البداية والنهاية الجزء الثانى صفحة ٨٤
١ ابن كثير فى البداية والنهاية الجزءالأول صفحة ٨٥

قال القرطبى والحدثى: إنّ هذه الآية كانت تنطبق على المسيح الذى تدرع بالجسد وأنّ الله إنّما جعل عرشه على الماء ليس على سبيل الدوام ولكن ليختبر إيمان الناس وقد سار المسيح لتلاميذه ليلاً على سطح بحر طبريّة ليختبر إيمانهم، وقال لهم فى هذه الواقعة: يا قليلى الإيمان.

[٩] لـه الحكم والأمـر:

قال القرآن عن الله فى سورة الأنعام الآية ٥٧:
إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ
وقوله فى سورة الأعراف الآية ٨٧ :
وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

وجاء عن المسيح على لسان محمد فيما رواه البخارى عن ابن عباس:
لا تقوم الساعة حتى ينزل ابن مريم حكماً عدلاً فيقضى بالحق ويمحو الظلم.

[١٠] يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار:

جاء فى سورة الأنعام الآية ١٠٣ :
لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

هذه صفة أخرى من صفات الله التى تحققت للمسيح كما يروى ابن كثير والقرطبى من أنّ المسيح كان ذات يوم على الجبل فأراد الرومان أن يقبضوا عليه فجاز فى وسطهم دون أن يدركوه بينما هو أدركهم وقال بذلك أحمد ابن خابط فى الفَرْق بين الفِرَق.

[١١] هـو الرحمـن الرحيـم:

جاء فى سورة البقرة الآية ١٦٣ :
وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ
وجاء فى سورة مريم الآية ٩٣:
إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا

ذكر الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل والأزرقى فى دلائل النبوّة، أنّ المسيح كان على صورة الرحمن. كان رحيماً متحنناً على شعب، برحمته أقام ابنة يايرس من الموت، برحمته ترأف كثيراً على المرضى، خلق عيناً لرجل وُلِد بلا عين بوضع طينٍ عليها لأن هكذا كانت سنّة الله فى الخلق منذ الأزل.

[١٢] يضـرب الأمثـال:

جاء فى القرآن أنّ من اختصاصات الله، أنّه وحده القادر أن يكلم الناس بأمثال
ففى سورة النور الآية ٣٥: **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**
وفى سورة إبراهيم الآية ٢٥: **وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**

قال ابن كثير والقرطبى والزمخشرى فى الكشاف أنّ الله يستخدم الأمثال لكى يقرّب للناس ما يريده حتى يقيم عليهم الحجّة، وقد كان المسيح وسط قومه يفعل ذلك، والكتاب المقدس فى عهده الجديد ملىء بالأمثال التى لم يتكلم بها أحد من الأنبياء.

[١٣] يرسل رسلاً ويعطيهم سلطانا ويؤيدهم بروحه:

فقد جاء فى سورة يس بالآيتين ١٣، ١٤ **ضَرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُون. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**

ذكر ابن كثير وجميع المفسرين أنّ هذه القرية هى إنطاكية وهؤلاء الرسل هم رسل المسيح وذكر أسماءهم وأنهم كان لديهم سلطان من المسيح... ترُى مَن مِن البشر كان يملك ذلك؟

[١٤] عبادة غيره كفرٌ وشرك:

جاء فى الآيات ٢٩- ٣١ من سورة التوبة:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

قال بن قتيبة: إنّ هذه الآية مشكلة، لأن فيها أنّ عبادة الله والمسيح فرض ولا يُعبد من دونهما، لذا رأى ابن قتيبة لتفادى تلك المشكلة يجب أن يُعربَ المسيح كمفعول ثان للفعل اتخذوا، وليس مضافاً حتى لا يوافق أهل الكتاب فى تأليه المسيح.

[١٥] يأتى فى ظلل من الغمام:

جاء فى سورة البقرة الآية ٢١٠:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ

قال ابن الفضل الحدثى أن المقصود هنا هو المسيح الذى سيأتى يوم القيامة على الغمام. وهو المقصود بقوله: وجاء ربّك والملك صفاً صفاً.

والحقيقة أننى وجدت أكثر ممّا كنت أطلب أو أريد، وقد لا يتسع المجال هنا لذكر كل ما توصلتُ إليه... فقد أعددُتها فى بحث منفصل تحت عنوان: حتميّة ألوهيّة المسيح . ذلك أنّنى بعد أن انتهيتُ من البحث ووجدتُ ما وجدت. غيّرت العنوان من : لاهوت المسيح إلى حتميّة لاهوت المسيح. وختمته بعبارة تقول:

إنْ لم يقل النصارى أنّ المسيح هو الإلـه، لكان لا بدّ وأن يكون المسيح هو الإلـه.

ثانياً : وهو بخصوص الشق الثانى من البحث وهو **موت المسيح كفارة عن الخطاة** أو ما يُسمى بالموت الكفارى، وهذا ما كنّا نرفضه عملاً بالآية "**ولا تزر وازرة وزر أخرى**". إذ كيف يموت مَن لم يرتكب ذنباً من أجل آخرين أخطأوا؟ هذا إلى جانب المعضلة الكبرى وهى **هل حقاً مات المسيح؟** لا أدرى سبباً لشعورى بالثقة فى إمكانيّة أن لا أجد ما يؤكد موت المسيح. **وكنتُ متفائلاً جداً أننى لن أجد ذلك** وبالتالى أكون قد أرضيتُ ضميرى، وبحثتُ ولم أجد. **وبناءً عليه فتمسُكى بالإسلام سيزداد أكثر وأكثر**. لذا اندفعتُ بكل حماس وقوة عسى أن أعوّض ما وجدته من دلائل لاهوت المسيح، فى **إثبات أنّه لم يمتْ ولا يجوز أن يموت نيابيّاً... فوجئتُ** وأنا أبحث عن الموت الكفارى بما قرأته فى **تفسير ابن كثير لسورة البقرة وخاصة الآية ٥٤** التى تقول:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

لقد وجدتُ نصاً صحيحاً بخصوص هذه الآية، فيه أنّ بنى إسرائيل أرادوا أن يتوبوا عن خطيتهم بعبادتهم للعجل، فلم يتب الله عليهم، وبعد توسط موسى طلب الله من موسى أن يُبلغ بنى اسرائيل أنّ السبيل الوحيد للتكفير عن خطيتهم، هو أن يَقتل كل رَجل أوشاب من بنى اسرائيل كل مَن يقابله ولا تأخذه به شفقة. وقيل أنهم كانوا يضعون عصابات على أعينهم حتى لا تأخذهم شفقة بذويهم، فيمتثلوا لحكم الله ويقتل كلٌ منهم الآخر. ويقول ابن كثير أنّه قد وقع ما لا يقل عن سبعين ألف قتيل حتى اكتفى الله. وكانت الدماء تسير كالأنهار، فأمر الله موسى أن يطلب منهم الكف، فقد قُبلت توبتهم. وأما مَن بقى حيّاً فقد كُفِّر عنه بدم مَن مات ولم يكن قد عَبَد العجل معهم، أى أنّ هناك شخصاً لم يعبد العجل مات، لتتحقق كفارة مَن عَبَد العجل ولم يمتْ... إذن **فلماذا نرفض أن يموت المسيح الذى بلا خطية، عمن أخطأ وما زال حيّاً؟، فالأمران سواء.**

أحسستُ وكأنّ الله يطاردنى بالأدلة، ويفرض علىّ حصاراً بحيث لم يعد أمامى من سبيل لإنكار أو رفض دعوة المسيح لى لأتبعه... حتى عن موت المسيح وجدت الكثير من النصوص تناولها **ابن كثير** فى تعليقه على الآية ١٥٧ فى سورة النساء والآيات الأخرى التى تكلمَت عن موت المسيح فى آل عمران **حتى أنّ الاختلاف كان يدور ليس على موت المسيح بل على مدة موته،** فمنهم مَن قال ثلاث ساعات ومنهم مَن قال يومين ومنهم من قال يوماً واحداً، وهذا حسب قواعد اللغة يؤكد وقوع الموت.

وإزاء ذلك كله كنت أزداد غيظاً وتألماً لأننى وددت لو لم أجد شيئاً يبرهن على صحة الفكر المسيحى. لا لشىء إلا لعزّة نفسى وتفاخرى وكراهيّتى لهم. لكن هذا أمر الله لا مَفرّ منه... لكن كيف أكيّف نفسى مع هذا الواقع الجديد، لا أدرى؟

لم أنقطع عن القراءة فى الإنجيل وأصبح لى صديقاً، وكنتُ فى كل مرّة أكتشفُ حلاوته أكثر فأكثر، وذات مرّة وأنا أقرأ فيه تسمّرت عيناى على نَصّ يقول:

وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلاَ تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً[1]

وقلت: **عجيبٌ أمر هذا الكتاب!** هل يجول فى الشوارع ويكتب منذ ألفى سنة ما يحدث الآن؟ **وبسرعة تذكرتُ أيّاماً كنتُ أسجد على جبهتى وأضع شيئاً صلباً تحتها حتى تبرز ما يُسمى بالزبيبة فى جبينى أتفاخر بها بين الناس. وكيف كنتُ أتباهى بصومى وتسبيحى،** وأتعمد ارتداء ثياب محدّدة لتدل على تديّنى... وعلى نفس الوتيرة، قمتُ بالبحث عن موضوع صلب المسيح وموته... وهل حقاً مات؟

درستُ ما يُعرف بالموت الكفارى، وقرأتُ أكثر ما تناولته **الكتب المسيحيّة** بخصوص هذا الموضوع. وفى نهاية الأمر **أصبح عندى شبه اقتناع عقلى بلاهوت المسيح وصلبه،** وقد يعتقد البعض أننى كنتُ مسروراً بما وجدتُ... كلا، لقد كنت فى غاية الضيق والضجر والتوتر **وتمنيتُ لو أماتنى الله قبل أن أكتشف أننى طوال الفترة الماضية من عمرى كنت أطارد سراباً لا أساس له من الصحة... لقد كان صعباً علىّ... أنْ أكتشفَ أنّ النصارى الأذلاء المحتقرين... ال... ال... على صواب وأنا المخطئ!**

---

١ إنجيل متى الأصحاح السادس العددان ٥ ، ٦

كنت لا أنام... أسير فى الشارع أتحدث مع نفسى... تطاردنى الأفكار أينما سرت... سيطر علىّ شك رهيب، خاصة عندما كنتُ أتوضأ لأصلى... كان أول ردّ فعل لى إزاء ذلك، **أنّى طلبتّ من الإخوة الذين كانوا يترددون علىّ ألا يُكثروا من زيارتى**، بدعوى مراقبة الأمن لى، وبالتدريج انقطعت علاقتى بهم. **كنتُ أشعر بالنعاس كلما حاولتُ أن أقرأ القرآن كعادتى كل يوم...** وفى نفس الوقت **كنت لا أملّ من قراءة الكتاب المقدس.**

ولا أخفى أننى تعلقتُ بالكتاب جداً، واتضح ذلك عندما زارنى الأمير آخر مرّة ولم يجدنى قد أنجزتُ شيئاً فى البحث... فقال: قدّر الله وما شاء فعل، **هات الإنجيل فسوف نبحث عن شخص آخر يقوم بذلك بدلاً منك، لأنّه يبدو أنّك غير مؤهل لذلك**. كان من الطبيعى أن أسَرّ بذلك لأنّ هذا ما كنت أتمناه، لكن الآن كل شىء قد تغيّر، لذا طلبتُ منه أنْ يمهلنى شهراً آخر وإلا لسحبَ البحث منّى، لأننى استطعتُ أنْ أضعَ يدىّ على بداية الطريق... والحقيقة أننى **لم أكن أريد أن أفقد الرخصة فى قراءة الكتاب المقدس، ولا أن أفقده أيضاً**. وافق الأمير على هذا الاقتراح... ولا أدرى لماذا فعلتُ ذلك!

كان يمكننى أن أوافق على سحب البحث منّى لأريح نفسى من التفكير، والمصير المجهول الذى أحفر مساره بيدى، كنت كلما هممت للصلاة، أسمع وكأنّ هاتفاً يقول لى: **كيف تصلى لإله لستَ متأكداً من وجوده؟ فانخرط فى البكاء**. وفى مرة من المرّات التى استطعتُ فيها أن أقاوم وأقرأ القرآن لفت نظرى الآية ٤٦ فى سورة العنكبوت التى تقول:

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[١]

حاولتُ أن أتمعن فيها أكثر فرجعت إلى **ابن كثير والقرطبى وكتاب الكشاف للزمخشرى** لأرى ماذا يقولون فى **هذه الآية**. وأوّل ما وجدت هو أن الجميع قالوا أنّها **نُسِخت** بآية السيف الشهيرة التى فى سورة التوبة الآية ٢٩ :

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[٢]

لكن ما لفت نظرى فى الآية ٤٦ من سورة العنكبوت... هو أكثر من مجرد النسخ... إذ الآية تقول: إنّ إلهنا وإله أهل الكتاب واحد، وهنا توقف عقلى عن التفكير... **إنّ إلهنا نحن المسلمين قد نَسَخَ كل أنواع المهادنة مع غير المسلمين من الناس واستبدل مكانها القتل والمضايقة والإيذاء**، حتى أنّه فى بعض **الآيات يجعل الله عذابَه لهم عن طريقنا**.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ [٣]

وهناك أكثر من ٢٧ آية يتكلم فيها القرآن **عن القتال الواجب على المسلم نحو غير المسلم**، فى حين نرى **إله أهل الكتاب يقول:**

أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ[4] **وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضاً. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِداً فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ**[٥]

---

١ سورة العنكبوت الآية ٤٦
٢ سورة التوبة الآية ٢٩
٣ سورة التوبة الآية ١٤
٤ إنجيل متى الأصحاح الخامس العدد٤٤
٥ إنجيل متى الأصحاح الخامس العددان٤٠، ٤١

أخذتُ أحدّث نفسى أين هذا من قول الله: **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** [١]
ومن قوله: **لا يكن أحدكم إمّعة يؤخذ حقه ولا يبالى**
ومن قوله: **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ** [٢]
وقوله: **ومن مات دون ماله شهيد**

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ... **وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل دون ماله فهو شهيد متفق عليه**

وقوله: **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ.** [٣]

حقاً يستحيل أن يكون الأبيض والأسود واحداً، **ويستحيل أن يكون الخير والشر واحداً**، ويستحيل أن يكون الليل والنهار معاً. لا بدّ لأحدهما أنْ ينفرد بذاته، وبناءً عليه لا بدّ أن يكون هناك إله واحد فقط... وأنا واثق أننى سأتوصل إليه لأننى أحبّه **ولن يمنعنى مخلوق من الإيمان بالإله الحقيقى.** حتى لو كان عند اليهود... **لكن أريدك سنداً لى يا ربّ**، لا تتخلّ عنّى، فأنا الآن غريبٌ مشتت الذهن، لا أدرى أين أنت... **وإن كنتُ قد خُدِعتُ فليس عن قصد**، أنت تعلم كم أحبّك، وكم تألمتُ من أجل محبّتِك، يا ربّ إن كنتَ تقتص منّى من أجل معصية عملتُها، فأسألك الرحمة فى قضائك، فأنت الإله وأنا عبدُك، على عهدِك ووعدِك ما استطعت، **أعترفُ بذنبى فاغفر لى**، لا تقسو علىّ فى عقابك...

بدأت تردُ على خاطرى أفكارٌ غريبة، كنت بمجرّد استعادتها أمام ذاكرتى، أشعر بالرهبة والخوف والفزع فإذ قلتُ: **لا يمكن أن يكون القرآن كلام الله... والكتاب المقدّس كلام الله أيضاً!... كيف يكون هذا... فلا بدّ لأحدهما أن يلغى وجودَ الآخر.** عندما تطرّقتُ لهذه الفكرة، انتابنى شعورٌ بالرعب والخوف، وكلما سمعتُ صوتاً، اعتقدتُ أنّ الله سيدمر البيت فوق رأسى... لأننى أفكر هكذا فى القرآن، وبدت حياتى كأصعب ما يكون. **كانت تلك الفترة أشدّ علىّ من فترة سجنى بالقلعة وتعذيبى هناك**، ولكن سرعان ما بدأ هذا الشعور يتلاشى.

قرّرتُ أن أعيد دراسة القرآن من جديد لأبحث عن كل جانب من جوانبه وأضع الآية التى تقول:
أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا [٤]

وقرّرتُ أن أكونَ محايداً جداً. والحقيقة أننى لم أكن محايداً إذ **تمنيتُ لو لم أجد شيئاً فى القرآن يقودنى للتصديق بأنه ليس من عند الله. كانت عندى مرارة تجاه المسيحيين وكانت كلمة مسيحى تثيرنى وتولد بداخلى رغبة شديدة فى الانتقام والعدوان تجاه كل ما هو مسيحى.** لم أكن أدرى سبب هذا الشعور الذى تملكنى، ربّما بسبب النشأة التى نشأتُ عليها وسط أسرة متديّنة تحب الإسلام وتكره المسيحيّة، بسبب تصورها على أنّها كفر وشرك. إنّ آباءنا كانوا يحذروننا فى طفولتنا من اللعب مع المسيحيين لأنهم خونة، وألا نأكل طعامهم فمن الممكن أن يضعوا لنا السم فى الطعام لأنّهم لا إله لهم ولا إيمان ولا أمان لهم.

بدأتُ أدرس القرآن دراسة دقيقة وعميقة، وبدأتُ أنتبه لأمور ذهلتُ منها وتعجبتُ.. **لماذا لم أدرك ذلك من قبل؟** قمتُ بإعداد بحث تحت عنوان: **"هل القرآن كلمة الله؟"** استغرق منّى هذا البحث قرابة الستة أشهر، خلالها **زارنى الأمير** فى وقت مفاجئ لم اكن أتوقعه، **وكنتُ فى دورة المياه، فاستأذن من والدتى ودخل غرفتى** لأنّه كان

٦ سورة البقرة الآية ١٩٤
١ سورة الأنفال الآية ٦٠
٢ سورة الفتح الآية ٢٩
٣ سورة النساء الآية ٨٢

معروفاً عند أسرتى،إذ قضينا سويّة فترة الاعتقال وكانوا يرونه معى فى كل زيارة. اعتقدَ الأمير عندما شاهد الأوراق المكتوبة مبعثرة هنا وهناك، أننى قد أنهيتُ جزءاً من البحث المطلوب منّى، وسمعته يقول: **بارك الله فيك... هكذا تكون الرجال... إنّ نظرتى لا تخيب... لقد قلتُ أنّك الوحيد القادر على عمل ذلك، فقلتُ فى نفسى... إنّك لا تدرى ما تحتويه هذه الأوراق! ...** وخرجتُ لملاقاته فإذا وجهه قد تغيّر إلى الحمرة وبدا مضطرباً، **فجذبنى من ياقتى قائلاً: ماذا أقرأ...! هل أنت كتبتَ ذلك؟!... مش معقول أنت!.. مَنْ ضحك عليك؟.. مَنْ خدعك؟..** مَنْ أغراك لتبع دينك!!.. قلتُ له: لو كانت هناك خديعة فأنتَ صاحبها.. ولو كان هناك إغراء فأنتَ صاحبه.. ولو ارتكبتُ إثماً فهو عليك.. لأنّك أنتَ الذى دفعتنى لذلك كله، اعتذرتُ إليك ولم تقبلْ عذرى... كنتم تعرفون كراهيّتى للمسيحيّة والمسيحيين، **وأصررتم على أن أكون أنا مَنْ يقرأ كتبهم**. أقسم لك أنّنى أتمنى لو أنّ كل ما عرفته يكون خطأ، لقد عشتُ معك أقسى وأصعب فترات حياتنا أليس كذلك؟ قال: نعم... قلتُ: هل كنتَ تلاحظ علىّ شيئاً؟ قال: لا... قلتُ: إذن فاعذرنى، الأمر ليس بيدى، وليس هو مجرد معلومات، لكنّه يتعلق بقلبى الذى لا سلطان لى عليه... **ليتك تقرأ ما قرأتُ وتعلم ما علمتُ**... **فانتفض هائجاً وأراد أن يمزق الأوراق المكتوبة: [ألوهيّة المسيح]، [القرآن ليس كلام الله].**

دار بيننا شجار، جاءت والدتى على أثره، ثم غادر منزلى قائلاً: الآن نحن قد علمنا ما بك... ولكنّى أطالبك بأمرٍ إذا كنتَ تريد أن تبقى حياً، قلت: ما هو؟ **قال: المجموعة التى أنتَ أميرها... إيّاك أنْ تخبرهم بشىء من السموم التى تكتبها**، سأقول لهم: إنّك ارتديت ولن أفصح عن السبب، أحذرك... لو حدث منك شىء غير ما أوصيتك به، فأنت أفضل مَن يعرف ما ينتظرك. قلتُ: إنّ الحقيقة التى تجهلها أنت، هى أنّ الأوضاع تغيّرت والأيام غير الأيام وأنت خيرُ مّنْ يعلم ذلك... بصراحة **أنا لا أقبل تهديداً** لسبب واحد هو أنّك لا تقدر على شىء مما تهددنى به ولعلمك، لقد دفعتنى أمانتى أن أطلب ممّن معى ألا يزورونى هذه الأيام، لأننى خشيت أن أستمر أعلمهم شيئاً أنا أشك فى صحته، لذا صرفتهم لأننى كنتُ أميناً معهم... لكن أؤكد لك أننى أحب الله، وادعُ لى أن يعيد الله صوابى إن كنتُ قد فقدته. انخرطتُ فى بكاء شديد **واسترجعتُ الذكريات الجميلة لحياتنا معاً فى السجون والمعتقلات**، وكيف كنّا نتحمل الصعاب معاً والحقيقة عزّ علىّ كل ذلك. **لكن إن كانت تلك إرادة الله فوداعاً لكل ذكرى طيّبة بعيداً عنه وأهلاً بالأشواك بجواره.**

بدأت الجماعة من خلال الأمير تقطع كل صلاتها بى حتى **الذين كانوا يقابلوننى يوميّاً لا يسلمون علىّ فعلمتُ على الفور أنّه قد تمّ تكفيرى**. ولم يكتفوا بذلك بل **سحبوا منّى المبالغ التى كنتُ آخذها من بيت المال لأنفق على نفسى منها ولم أتأثر**. لقد تصوّروا أننى سوف أضيق بتصرفهم وسأعود إليهم تائباً، لم يفهموا ما كان بداخلى... كنّا معاً قد اشتغلنا فى ما يشبه توظيف أموال، اشتركتُ أنا والأمير وشخص ثالث بالأموال التى عدنا بها من الخارج، وكنّا نتاجر فى الملابس الجاهزة، وكنتُ أنا مسئول الاستلام وتوقيع الشيكات لدى التجار الذين نتعامل معهم، ولمّا حدث ذلك منّى لم يسددوا المبالغ المطلوبة وأصبحتُ أنا مُطالب بسدادها، رفعوا علىّ قضيّة بالمحكمة **وتوقّعوا من كل هذا أن أعتذر وأتوب عن كفرى** وقالوا لى ذلك صراحة فى المحكمة، إذ اقترب (الأمير فقط) من القفص وقال لى: **يمكننا سحب القضيّة إذا راجعتَ نفسك وتبت إلى الله** وأخبرتنا عمّن أثّر عليك لتسلك هذا السلوك ولكنّى كنت لا أجاوبهم، وحكمَت المحكمة بأن أرد المبلغ على أقساط قيمة كل قسط ١٦٠ جنيهاً. كانت تلك ضربة قويّة لهم إذ كان هدفهم حبسى ومرت التجربة بسلام والحمد لله.

أخذتُ أكلم الله بحدّة وبثورة وأكرر: لماذا يا ربّ تفعل ذلك معى؟ هل خصصتَ العذاب لى وحدى! منذ الصغر وأنا أقاسى وأتحمل المتاعب، لم يعدْ لى صديق لأنهم كفروا بك، فقدتُ مودة أهلى لأنهم لم يقبلوك، فقدتُ دراستى لأنها كانت عائقاً بينى وبينك، والآن لا أدرى ماذا خبأتَ لى فى جعبتك من آلام.. من فضلك ترفق بى.. **هوّن علىّ فأنا ضعيف لا حول لى ولا قوّة**.. لا تتركنى فى هذا البحر اللجىّ تتخبطنى الأمواج ولا أدرى لأى شاطئ تقودنى.. قل لى أين أنت.. **هل أنت إله النصارى أم أنت إله موسى أم أنت إله محمد..** لماذا سمحتَ لى بكل هذا القلق فى حياتى ليعكر علىّ صورتك الشفافة.. **أرجوك يا رب .. لا تتركنى وحدى.. وأنا أعدك أن أتبعك أينما كنت**.. لأننى لآ أخاف سواك وأنت تعلم ذلك علم اليقين... لم يقطع علىّ مناجاتى هذه سوى صوتُ والدتى تطلب منّى أن آخذ الطعام ، **لأننى لم أكن آكل معها، لأنه لا يجوز لى أن آكل مع مشرك وكانت والدتى كذلك.**

تطرقتُ بعد ذلك إلى موضوع فى غاية الخطورة والأهميّة ألا وهو إذا كان القرآن ليس من عند الله إذن فمن يكون محمد هذا؟ حتماً لا بدّ وأن يكون كاذباً فى ادّعائه النبوّة، لكن كيف أثبت ذلك، وبمجرّد أن حدّثتنى نفسى بذلك ارتعبتُ رعباً شديداً، **وقلت: مش ممكن!.. محمد ليس نبيّاً!.. طيّب معجزاته وإمبراطوريته التى كانت مترامية**

الأطراف، وكل هذا الكم من الناس الذين تبعوه!.. كنتُ أشعر وكأننى على وشك أن يحلّ علىّ انتقام الله الشديد ويحيط بى عذابه. لكن بعد أن هدأت ثورتى هذه، بدأتُ أشعر بشجاعة وعزيمة نحو **ضرورة أن أبحث فى مَنْ هو محمد؟ وهل هو نبىّ أم لا؟** لقد كانت **دلائل نبوّة محمد** ترتكز على عاملين أساسيين هما **أنّه أمّى ونزل عليه القرآن، وأنّه كان قبل النبوّة معصوماً ولم يرتكب منكراً قط.**

[١] الأمـيّـة:

لم يكن فى اعتقادى أن أجد ما يدل على أنّ محمداً كان يقرأ ويكتب، لأنّ كل الذى أعلمه وتعلمته أنه يستحيل أن يكون محمد يكتب ويقرأ. **هذا دفعنى لقراءة كتب السيرة مرة ثانية،** والحقيقة أننى وجدتُ أموراً تعجبتُ منها، إذ كيف كانت تمرُ علىّ من قبل ولم أدرك ما فيها!.. وجدتُ أنّ محمداً كان يخلو فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه **النضر بن الحارث وورقة بن نوفل وابن ساعدة القس المشهور. وجدتُ أنّ محمداً كان يتاجر بأموال خديجة** الكثيرة، **وأنّه أبرم عقوداً واتفاقيات مع تجار اليمن والشام،** وما يُقال عن أنّه كان يحمل خاتماً يوثق به اتفاقاته غير صحيح كدليل على أميّته، لأنه فعلاً كان لديه ذلك الختم وإنّما هذا كان شيئاً متعارفاً عليه فى أمور التجارة وهو أن يكتب البائع والمشترى الاتفاقيّة ثمّ يُطبع عليها بالخاتم للتوثيق، وهو ما يشبه ختم شعار الجمهوريّة الآن. كما وجدتُ أيضاً **أنّ محمداً بعد النبوّة كتب صلح الحديبيّة بيده،** ووجدتُ أيضاً أنّه كان فى كفالة عمّه أبو طالب وكان أكبر مِن علىّ وكان علىّ يقرأ ويكتب، ومن الصعب ألا يتعلم محمد من علىّ أمور الكتابة حتى ولو القليل منها. وجدت أنّ محمداً **كان يجلس عند يسار النصرانى ويأخذ منه نصوصاً من الإنجيل ويقرَؤها، وجدتُ أنّ جبريلاً عندما نزل عليه طلب منه أن يقرأ ولم يكن منطقيّاً أن يطلب من محمد أن يقرأ وهو لا يعرف القراءة.** وإذا أضفتُ إلى ذلك ما وجدته عند البحث عن ـ صدق نبوّته ـ والذى قادنى إلى ذلك كله... فيصبح محمد **لا نبيّاً ولا صدّيقاً** ... ويمكن دراسة البحث المنفصل عن هذا الموضوع فى كتيّب أعددته تحت عنوان **"محمد فى التوراة والإنجيل".**

[٢] العصمـة:

ثم نأتى إلى مسألة عصمته، **وهنا حدّث ولا حرج،** وأى كتاب من **كتب السيرة مثل السيرة الحلبيّة والطبقات الكبرى وسيرة ابن هشام** حتى كتب التفسير التى تكلمت عن آية سورة النحل التى فيها: **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** [١]

هناك عدّة أحاديث صحيحة تقول إنّ محمداً **كان يشرب النبيذ** ويوصى صحابته أنّهم إذا وجدوه شديد التركيز يكسروه بالماء. وكان **يأكل من الذبائح التى تذبحها قريش عند الكعبة على الأوثان،** وكان **يحل ما حرّم الله ويحرم ما حلل الله، وكان يطمع فى نساء أتباعه** إن استحسن منهن شيئاً كما حدث يوم خيبر **عندما وقعت صفيّة بنت يحيى بن أخطب فى سهم عبد الله بن عمر فأخذها منه وتزوجها، وكذلك زينب بنت جحش زوجة زيد.** كل ذلك أزال الصورة البراقة **وهدم الهيكل المقدس الذى كنتُ أضع فيه الرسول، ولا** أخفى **أننى كنت أتألم كلّما اكتشفتُ شيئاً من هذا القبيل.**

رغم كل ما وصلتُ إليه لكن للأمانة كنتُ تواقاً لأن **أجد ولو القليل الذى يعيننى على أن أبقى مسلماً لأنه الدين الذى رضعته فى طفولتى.** كان مجرد التفكير فى تركه يقلب حياتى إلى جحيم وخوف ورعب. **كنتُ كلماوجدتُ شيئاً أو قرأتُ نصاً فى الكتاب المقدس ذا معنى حسناً، ازددتُ حقداً وحسداً وغيظاً على المسيحيين** وازدادت قساوتى عليهم.

كان لى زميل يعمل معى، فكلما وجدتُ شيئاً فى الأنجيل ذهبتُ لأخرج كل غيظى عليه وأتلف له ممتلكاته الشخصيّة، **كنتُ أدفعُ للآخرين مالاً لكى يكيدوا له ويشتكونه للسلطة العليا،** ومرّة أحرقتُ له ملابسه حتى اضطر للعودة الى منزله بملابس العمل. كنتُ أقف أمام أحد المحلات التى يمتلكها رجل مسيحى وأحذر الناس من الشراء منه

---

١ سورة النحل الآية ٦٧

قائلاً: إنّ بضاعته غير جيّدة لاتشتروا منه، إنّهم مخادعون ويريدون أن يدمروا الإسلام، إنّهم كما قال القرآن: **"لا إيمان لهم"**. حتى أنّ هذا الرجل المسن كان يقول لى: "يا بنىّ ماذا فعلتُ لك... حرام عليك... عندى أولاد أريد أن أربيهم". وتارة أخرى أحذر زملائى من السلام عليهم، وأذكرهم بحديث الرسول: **"لا تسلموا على أهل الكتاب ولا تردّوا عليهم السلام وضيّقوا عليهم الطرقات"** وأقول بصوت عال: هؤلاء خبثاء يتظاهرون بالحب وهم أشد عداوة لله للمؤمنين لا تنخدعوا بما ترونه عليهم من مسكنة، إنّ ذلك تصديق لقول الله: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**[1]

وذات يوم حافل بمثل هذه التصرفات، أحسستُ بهاتف داخلى يقول لى: كن صادقاً مع نفسك، هل بعملك هذا تقدر أن تزيل كل ما علمته من كتبهم؟ أنت قلت إنك ستتبع الله أينما كان... فلماذا كلما أضاء الله لك نوراً تحاول أن تطفأه بيدك؟ كن أميناً مع نفسك حتى تستريح... راجع نفسك... هل تريد الله أو ماذا تريد؟ الأمر ما زال فى يدك ولا أحد يفرض عليك شيئاً. رجعتُ إلى المنزل مهموماً، حاولتُ أن أصلى لكن لم أقدر... **قرأتُ فى الكتاب المقدس فى إنجيل متى** ووقعَت عيناى على **الصلاة التى علمها المسيح للتلاميذ وحفظتُها، وإذا بى أشعر فجأة بسلام وهدوء عجيبين**، ينسكبان علىّ أشبه بمَن يسكبُ ماءً، ليغسل من ذاكرتى شيئاً ما، **وقلتُ: يا ربّ... هل تقدر أن تجعلنى على ما أرى المسيحيين عليه، من هدوءٍ وصبرٍ وتحملٍ وبساطةٍ ومحبةٍ، إن أنا صليتُ كما هو مكتوب فى الإنجيل؟ وشعرتُ بسعادة بالغة، وكأنى سمعتُ الردّ يقولُ لى: نعم...** تهلل وجهى فرحاً، وأخذتُ أصلى بانتظام الصلاة الربّانيّة...

أقومُ فى الفجر فى مواعيد الصلاة التقليديّة التى تعودتُ عليها، **وأتوضأ وأبسط السجادة وأقفُ واقولُ: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.**[2] وفى النهاية أقول: "السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله"

داومتُ على ذلك كثيراً لكن لم أجد تغييراً إذ ما زلتُ عدوانيّاً مع أسرتى ومع المسيحيين ممّا جعلنى أقرر أن أترك كل الأديان ، **فلا الإسلام نافع ولا المسيحيّة نافعة**. ومن يدرى فلعلى بعد أن أقتنع بالمسيحيّة لفترة ما، ثم يحدث أن أقرأ كتاباً ما، فأجد ديناً آخر أفضل وهكذا أبقى طوال حياتى متنقلاً بين الأديان. الأفضل فى مثل حالتىهذه، أن أعيشَ مثل الناس العاديين... **لماذا أشغل تفكيرى بالدين؟** عندما أموتُ يفعلُ الله بى ما يريد. **لكن هذا لم يكن حلاً**، وفجأة طرأت على بالى فكرة فقلت: **إنّ سبب كل هذه المشاكل هذا الكتاب أى التوراة والإنجيل** فلأمزقه وأسترح، وهممتُ بذلك وإذا رعشة خفيفة تسرى ببدنى وهاتف يقول: **اتركه فقد تحتاجه...** ولماذا هذا بالذات؟!.. لقد سبّب لك القرآن أكثر من ذلك فلماذا لم تمزقه؟!.. كنتُ إذا ركبتُ سيّارة أقول: يا ربّ.. لتنقلب السيّارة وينجو الجميع إلا أنا.. ليت البيت ينهار فوقى أنا وحدى، يا ربّ.. إن كنتَ لا تريد لى الهداية، **فخذ نفسى** أرحم ممّا أنا فيه.

فى خضم هذه الأفكار والصراعات والهموم ، **فى يوم من أيام شهر يوليو وكان ذلك فى منتصف النهار أى الساعة الرابعة عصراً**، وكنتُ استعيد ذكرياتى الطويلة مع الإسلام والجماعات والإرهاب.. وأخيراً مع الإنجيل والتوراة.. وما صار من الأمير تجاهى.. أخذتُ أقول: يا ربّ.. إنّك تعلم أنّنى فى كل هذه الأحداث لم أكن أبحث إلا عنك.. فهل من عدلك ومحبّتك أن تتركنى هكذا، يا ربّ.. حتى إن كنتَ تعاقبنى عن جرم بدر منى.. فأعتقد أنّك قد استوفيتَ حقك، وأى جريمة تلك التى تستحق ذلك العقاب، أرجوك.. لا تتركنى وحدى فى هذا الصراع...!

وفجأة وجدتُ باب غرفتى يُفتح، فاعتقدتُ أنّ والدتى تُحضر لى الغذاء.. فإذا برجل طويل، عريض المنكبين، طويل الشعر، كثيف اللحية وبجواره عمود من نور أبيض ناصع،

---

١ سورة البقرة الآية ٦١

٢ إنجيل متى الأصحاح السادس الأعداد ٩- ١٣

كالضوء المنبعث من لمبة النيون، لم أقدر أن أتطلع إليه أو أوجه نظرى نحوه، وإذا بصوت ينادينى قائلاً: قم.. اعتدل.. المسيح يريدك.. لم أشعر بنفسى إلا خارج الغرفة أنادى على والدى ووالدتى وإخوتى ليروا المسيح (سيّدنا عيسى) لأنه مكتوبٌ فى البخارى، مَنْ رأى نبيّاً فقد رأى هُدىً، لأنّ الشياطين لا تتمثل بالأنبياء، وعسى أهلى إذا رأوا المسيح أن يهتدوا.

عدتُ إلى غرفتى ولم أجد شيئاً فحزنت جداً وقلت: يا ربّ.. حتى هذه المرّة لم ترد أن تنصفنى.. لماذا لم تنتظر لتبرهن لهم عن صدق حديثى.. إنّهم الآن لن يقولوا أكثر من أننى جُننت..! وفعلاً نزل كل إخوتى وأهلى وتوجّهوا نحو غرفتى فلم يجدوا شيئاً، وما توقعته حدث **فقالت والدتى: يا ربّ.. لماذا كل ذلك، لقد فرحنا بعودته وهدايتك له بالاستقرار، وها أنت الآن تصيبه بالجنون.. وأخذت تبكى وتضمّنى إليها**، ويقول أخى: **لا تقلق.. سأذهب بك لأفضل طبيب نفسانى فى مصر كلها**، وتقول أخواتى: كل هذا بسبب ما تكتبه طوال الليل فذلك نهايته الجنون، **يا ربّ.. اشفه!**

توجهتُ ناحيتهم وقلتُ لهم: الستَ أنت فلان؟ قال : نعم. ألستِ أنتِ أمى؟ وأنتِ أختى وأنتَ أخى.. إنّى أعرفكم جميعاً ولو كنت مجنوناً ما عرفتكم.. **لماذا لا تصدقوننى؟ لقد رأيته كنور عظيم وتكلم إلىّ**.. كان رأيهم أقوى من كلامى حتى أننى قلت: ما دام الأمر كذلك لماذا لا أكون كما قالوا؟ صحيح.. إنّ هذا الكلام الذى أقوله كلام مجانين **فعلاً.. أنا مجنون، وعلىّ أن أستمع وأخضع لهم فى كل ما يقولون.**

بدأتُ أستسلم لكونى مجنوناً، فرقدتُ فى سريرى لا أكلم أحداً، يتوافد علىّ إخوتى يعزوننى وأنا لا أنطق بحرف، وفى الصباح اصطحبنى أخى بالسيارة، **وذهبنا لأكبر طبيب نفسانى فى مصر**، ودخلتُ الى حجرة الطبيب بعد أن استدعانى، وجلستُ أمامه وسألنى ماذا بك؟ قلتُ: لا أدرى.. أخى جاء بى إلى هنا. قال: **إنّ أخاك يقول: إنّك تقول أنّك رأيتَ سيّدنا عيسى؟ قلتُ: نعم رأيته. قال: هل تقدر أن تصفه لى؟ قلتُ: وهل رأيته أنت من قبل؟** قال: لا. قلتُ: فكيف ستعرف ما إذا كان الذى سأصفه لك هو أم لا؟ قال: إنّ حالتك صعبة.. ثمّ طلب أخى **وأخبره أننى مصاب بحالة اكتئاب حاد ويلزمنى جلسات كهرباء بسرعة**، تبدأ بست جلسات وتتدرج الى اثنتين وطلب من أخى أن يحضرنى إلى المستشفى مرّتين فى الأسبوع. فقال أخى: إننا بعيدون عن القاهرة بحوالى ساعتين ونصف. ومن الصعب أن نأتى بهذا القدر من المرّات. نرجو أن تحدد لنا كيفيّة إجرائها فنبحث عن طبيب من مدينتنا يمكنه القيام بذلك.

وافق الطبيب ووافقتُ أنا أيضاً قائلاً: **إننى لا أخاف من جلسات الكهرباء فقد أخذتها كنوع من التعذيب فى المعتقل من قبل وبالتأكيد فهى للعلاج ستكون أخف، ولماذا أرفض فلو كنتُ مجنوناً فسأستريح ممّا يدور بفكرى وإن كان غير ذلك فإنى أضيفها مع سابقتها من ألوان العذاب التى تحملتها فى بحثى عن الله عسى أن يرحمنى.**

انتهيتُ من الجلسات والعلاج الذى قرره الطبيب، وتوقعتُ أن أنسى كل ما كنت أفكر فيه من قبل إن كان ذلك وليد جنون أو توتر نفسى، لكن بعد أن انهيتُ العلاج وجدتتُ نفسى كما كنتُ بل مدفوعاً اكثر لقراءة الكتاب المقدس، ولم أكن أهدأ أو أنام إلا بعد قراءة شىء من الكتاب. وأخذتُ على نفسى ألا أحدث أحداً بأى شىء فيما بعد، **قررتُ أن أعيش كمسيحى لأرى عمل الله فإن كان هذا طريقه فبالتأكيد لا بدّ وأن أرى ثمار ذلك،** وأرى تأييده لى وإلا عدتُ كما كنتُ، وكما قلتُ من قبل كنتُ أواظب على الصلاة بطريقتى وهى خمس مرات كل يوم، الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء. لم أكن أقرأ شيئاً ممّا كنت أقرأه فى صلاتى السابقة بل الصلاة الربّانيّة فقط (أبانا الذى فى السموات...). لكن احترتُ كيف أصلى، كيف أزكى، ما الطقوس المطلوبة منّى حتى آتى بها كاملة لأكون مستحقاً أن يعمل الله فىّ...

هل لا بدّ لى أن أذهب إلى الكنيسة لأتعلم كيف أعبد الله؟... لم يلق هذا الرأى قبولاً لدىّ إذ كيف أذهب إلى الكنيسة بهيئتى هذه... أو كيف أذهب إلى الكنيسة مذلولاً خاضعاً وأنا الذى كنتُ كذا وكذا..لا..لا.. **فلنؤجل الكنيسة الآن حتى أسأل بعض الأشخاص وهم زملائى بالعمل، لكن هل أجد بينهم مَن يوافق على التقابل معى بعد كل ما صنعته بهم؟ وفعلاً لقد رفضوا جميعاً الالتقاء بى لأنهم ظنّوا أننى ربما أقتلهم أو أرغمهم على الإسلام!** وبعد مضىّ شهر وافق أحدهم.. عزمتُ أن اقرأ بعض الكتب لمعرفة المزيد عن أفكار المسيحيين..كيف يفكرون وماذا يقولون وهل لديهم كما للمسلمين الكتب التى تعين على فهم الفكر المسيحى..

قررتُ أن أقص لحيتى حتى لا ألفت الانتباه وأن أستعير قميصاً وبنطلوناً لأرتديهما بدلاً من الجلباب الذى كنتُ أرتديه طوال حياتى ثم ذهبتُ إلى المكتبة التى اشترينا منها الكتاب المقدس من قبل، لم يعجبنى كتاب فيها فذهبتُ لمكتبة أخرى بشارع آخر وأخذتُ أتطلع إلى الكتب المعروضة، كنت أرغب الدخول الى المكتبة لكننى ترددتُ وشعرتُ برعشة، إذ **كيف أدخل مكتبة المسيحيين وأنا الذى كنتُ لا أطيق مجرد النظر إليها**.. خشيت أن يطلبوا منّى بطاقتى ويستدعون الأمن فأذهب للمباحث وباطلاعهم على ملفى هناك أكون قد ألقيتُ بنفسى إلى التهلكة.. وبعد تردد شديد دخلتُ إلى المكتبة، لفتت نظرى بعض الكتب .. لم أكن أعرف ماذا أريد أن أقرأ، لذا اشتريت كل كتاب استهوانى عنوانه.. **اخترتُ كتاب برهان يتطلب قراراً، وإيمانى، وكفارة المسيح.. أخذتُ أقرأ تلك الكتب، وكنتُ كلما أنهيتُ قراءة كتاب أحرقه.**

وعندما انتهيتُ من قراءة الكتب كلها، ذهبت إلى المكتبة مرّة ثانية لأبحث عن كتب أخرى، فوجدتُ كتاباً **اسمه التوحيد والتثليث وعلم اللاهوت الكتابى**. وعندما قرأتُ الأسعار ووجدتُ أنّ ما معى من نقود ليس كافياً، حاولتُ إرجاع الكتب إلى أماكنها ثانية، فإذا برجل مُسِن ياتى إلىّ ويقول: لماذا أرجعتَ الكتب؟ قلتُ: لا أريدها، قال: لو أنّك لا تريدها لما أخذتها من مكانها. قلتُ: وما دخلك أنت؟ هل تحقق معى.. لا أريدها. فوضع يده على كتفى وابتسم وهو يربت على كتفى ويقول: يا بنىّ خذ هذه الكتب وسأدفع ثمنها وسأريك عنوانى، ويمكنك إرجاع ثمنها إلىّ إن أعجبتك وإن لم تعجبك فيمكنك أن تمزقها أو تتخلص منها كما تحب ولن تخسر شيئاً. **فقلتُ له: مَن أدراك أننى لا أملك ثمن هذه الكتب الآن؟ قال: الروح القدس. قلتُ فى نفسى: ما عسى أن يكون الروح القدس هذا،** وأخذتُ أفكر كثيراً فى ذلك.. ذهبتُ معه إلى منزله وجلسنا معاً بضع دقائق، وكنتُ أخشى أن يطلب منّى بطاقتى فيعرف شخصيّتى وعقيدتى ويظن أننى أريد شيئاً ما، لكن الله سلّم ولم يسألنى حتى عن اسمى..

كنتُ **أقرأ هذه الكتب وغيرها من الكتب إما بالبيت أو استأجر حجرة فى فندق وهناك أجلس طوال الوقت أقرأ**. كنتُ لا أريد أن أضيّع دقيقة حتى فى الأكل، كنتُ لا أريد أن أضيّع دقيقة حتى فى الأكل أريدُ أن ألتهم كل كلمة تتكلم عن المسيح أو تؤدى بى ولو **خطوة نحو المسار الجديد للحياة الجديدة التى بدأت تقتحمُ عزلتى، وكثيراً ما كنت أجلس فى مقهى فى أحد الشوارع، كل روّاده من المسيحيين لأقرأ ما أشتريه من كتب.**

لقد أحببتُ تعاليم الكتاب المقدس أو بمعنى أصح أحببتُ أن أكون كما هو مكتوب بالإنجيل من صفات وخلق لو عشتها بأمانة لأصبحتُ ملاكاً يسير على الأرض، كان كل تفكيرى منصباً حول تساؤل يخطر ببالى دائماً وهو: هل من الممكن يا ربّ .. **لو قبلتُ إنجيلك وعملتُ حسب المكتوب، أن تجعلنى على صورة أفضل من تلك التى أنا عليها الآن؟ هل من الممكن أن تخلق فىّ قلباً محباً بدل ذاك القلب المملوء عداوة وكراهيّة؟ هل من الممكن أن أحب أمى وأبى وإخوتى حتى ولو لم يقبلوا ما أنا عليه؟ هل من الممكن أن يكون لى أصدقاء أحبّهم ويحبوننى حتى ولو لم يصدقوا ما أقوله؟ وهل من الممكن أن أحب بلدى وأشعر بالانتماء إليها كما أرى غيرى من الناس؟ هل تقدر أن تفعل بى ذلك يا ربّ؟ ليت ذلك يتحقق.. يا إلهى.**

لقد كانت أولى الخطوات التى نتّبعها فى تلمذة كل من ينتمى الى الجماعة هى أن ننزع عنه أى انتماء.. سواء للبلد الذى هو منها أواسرته بمن فيها ولا يكون له انتماء إلا لله، ولا ولاء إلا للأمير. لذا لم أكن أصدق أننى يمكن أن أتغيّر.

لقد تـرَ كَتْ رؤيتى السابقة للنور، والشخص الذى قال لى: قم المسيح يريدك، انطباعاً محيّراً، فما أعلمه أنّ رؤ ية أحد الأنبياء، هى دلالة على الهدى، لكن أى هدى ذلك فى تلك المرحلة؟ هل هدى الإيمان المسيحى أم هدى الإسلام الذى كنتُ عليه من قبل..؟ كانت تلك الأفكار تزاحم تفكيرى، حتى أننى لم أكن أشعر بنفسى، لقد كنتُ ألتفتُ حولى وأنا أسير فى الشارع وكأنّ أحداً يطاردنى، كانت خطواتى تسبقنى ولا أعرف إلى أين أذهب، حقاً كانت تلك المرحلة صعبة للغاية، حتى **قررتُ أن أذهب إلى إحدى الكنائس** إذا كنتُ أريد أن أحيا كما يريد الله، وكأن لسان حالى يقول: لقد سمعتَ الصوت وعليك اتباعه، أنتَ قد عشتَ فى الإسلام زماناً هذا قدره لكنّك لم تعش يوماً فى الإيمان المسيحى لتعرف أيهما أفضل وأقرب إلى الله، **وذهبتُ فعلاً ليس إلى كنيسة واحدة بل إلى عدّة كنائس.**

لم يكن ذلك بالشيء السهل علىّ، إذ **كنتُ أصارع إبليس كلّما قررتُ دخول كنيسة من الكنائس** فلقد كان يقولُ لى: أهكذا تَدَنّت حالتك يا.... لتذهب إلى الكنيسة؟ شتّان الفارق بين ذهابك اليوم مذلولاً وذهابك من قبل لتعلى كلمة

الله، هل نسيتَ ما فعلتَه من قبل؟ هل نسيتَ هتافك الذى كان يدوى فى كل أرجاء الكنيسة يومَ حرقتَها أنت وإخوانك؟ إن كنتَ نسيت أذكرُك، لقد كنتَ تقول: جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطلَ كان زهوقاً، أين هو الحق الذى عرّضتَ نفسَك للموت من أجله؟ لم يعد أمامك إلا الكنيسة وكر الكفر والشرك.. هل ستشرك بالله بعد تلك الرحلة الطويلة من الوفاء والإخلاص لله؟ قم من نومك يـا.... استغفر الله وتب إليه واشهد ثانية بأنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، قم اغتسل وارفع عنك تلك الأفكار الشرّيرة واستعذ بالله من الشيطان الرجيم..، وبعدَ فترة أجدُ نفسى وإذا بدافع يدفعنى إلى الكنيسة وفى الوقت نفسه كنتُ أجد ما يحاول إعاقتى، حتى أننى صرختُ بصوت مسموع قائلاً: **سأذهب إلى الكنيسة سأذهب إلى الكنيسة مهما كان الأمر ومهما كلّفنى ذلك**.. كفى ما أنا فيه الآن، لم يعد لى صديق، ولم يعد لدىّ إحساس بأنّ لى أهل مثل باقى الناس، لم أعرف الرحمة طوال حياتى..

لقد قتلتُ وسرقتُ وها أنا اليوم بلا أصدقاء، لا شىء لى ممّا خلقه الله لنا، فهل من الممكن أن يكون الله راضياً عنّى بهذه الصورة؟ أىّ إله ذاك الذى يأمر بالقتل، والكراهيّة والعداوة والبغضاء، لكل مَن يخالفنا الرأى؟... ارحمنى يا ربّ فأنا مسكينٌ وضعيف، أريد أن أعيش ولو للحظات كأى انسان طبيعى، **اريد أن أحب بلدى وأهلى وأصدقائى، ولكن كيف..؟ وفى أى الاتجاهين..؟ أقدر أن أحقق هذا..؟** إذن فلأذهب إلى الكنيسة مهما كلفنى الأمر حتى لو كلفنى حياتى**. واندفعتُ مسرعاً إلى الكنيسة**.

لم يكن موقف القسيس منّى كما كنتُ أتوقع بل كان صعباً، إذ رفض الاستماع إلىّ، ممّا زاد من هجوم إبليس علىّ، لكننى وإن كنتُ قد فشلتُ فى أن أقنعه بالاستماع إلىّ، فلا أنكر أننى خرجتُ وبى شىء من الراحة النفسيّة، ممّا ساعدنى على تكرار المحاولة. **لكن للأسف لم تنجح أى محاولة للجلوس مع أى قسيس لأعرف منه ماذا أفعل لأكون مستحقاً لخلاص المسيح، إذ أنّ النص يقول: مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ[١].** وما كان يشغلنى هو: كيف أومن؟ .. ما المطلوب منّى؟.. كيف أصلى؟.. كيف أصوم؟.. كيف أحج؟.. كيف أزكى؟..

فى آخر مرّة، خرجتُ من الكنيسة مهموماً جداً، أو كما يقولون: أجرُ أذيال الخزى والعار. وإبليس بدوره يقول فى أذنى: لقد رفضوك، إنّك تستحق ذلك وسوف يريك الله ما هو أشد من ذلك.. لكن لم يستمر هذا طويلاً، حتى سمعتُ وكأنّ أحداً يكلمنى بصوتٍ خافت ويقول: **اسمع... لا تتعبد للناس...** لا تيأس من سلوكهم نحوك... **أنت تعبد الله والله لن يخذلك**، ولن يضيّعك أبداً... اصبر وتمسك به إن كنتَ حقا تبحث عنه... لن تطول أيّام تعبك هذه... فالله لا يردّ مَنْ يطلبه... ألم تقرأ قوله: **تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ.**[٢] [قلتُ: قرأته يا ربّ... إن لم يكن الآن، فقد كانت عيناى تطالعان هذا النص الذى كان مكتوباً على جدار إحدى الكنائس، وكنت أراه كل يوم طوال فترة دراستى بالكليّة وأنا أركب الأوتوبيس من المدينة الجامعيّة حتى الكليّة، لدرجة أننى حفظتُ المكان، فكنتُ كلما اقترب من هذا المكان أضع يداى على عينىّ حتى لا أراه] قال: سلّم حياتك لله وهو يتصرّف، **قلتُ: نعم يا ربّ.. أنا أسلم حياتى لك، لكن ارحمنى ممّا أنا فيه، علمنى طرقك**، أنا تائه حيران، كثيرٌ هذا الذى يحدث لى يا ربّ..

كنتُ كلما مررتُ بتجربة مثل هذه أعود وأقرأ فى الكتاب فأشعر براحة نفسيّة عجيبة، بعد ذلك فكرتُ فى الإتصال بأحد المسيحيين الذين كانوا يعملون معى، لكنهم جميعاً لم يرحبوا بمقابلتى خوفاً من أن أكون قد أعددتُ لهم كميناً لإيذائهم، ورفض بعضهم لأنه ظنّ أننى أريد أريد أن أدعوه للإسلام، ولكن إن أراد الله شيئاً فلا يمنعه أحد، فذات مرّة كنتُ مع أحد المهندسين فى زيارة لصديق له، وفى طريق عودتنا طلب منّى عن طريق السخرية والاستهزاء أن نزور صديقاً له مسيحيّاً، لأنه كان يعلم مدى كراهيّتى للمسيحيين واعتقد أنّه بهذا يريد السخرية بى، لكنّه لم يتوقع أن أقبل ذلك، فبمجرد أن طلب منّى ذلك وافقتُ على الفور، ولكنّه كان كل دقيقة يقول لى: إنّه مسيحى أتعلم ذلك؟ أقولُ: نعم وأنا موافق على زيارته، فطلب منّى ألا أتصرّف مع المسيحى بطريقة تسىء إليه، فقلتُ له: لا تَخَف سأكون عند حسن ظنّك. **وذهبنا لزيارة صديقه المسيحى وكان يعلم عنّى كل شىء، بل كثيراً ما كنتُ أعترضُ طريقه وأثير المسلمين ضدّه ونتهجم عليه بالسباب طالبين منه أن يترك المسيحيّة ويدخل دين الإسلام، وبمجرّد أن رآنى أمام منزله ارتعد وأغلق الباب سريعاً**، فعاود زميلى الطرقَ ثانية ففتح الباب وقال لزميلى: لماذا جئتَ بهذا إلى هنا؟ **ألم يكفِك ما يفعله معنا بالمكتب؟** حرام عليك.. إنّى رجل لا أسىء إلى أحد.. وبعد مناقشات سمح لنا بالدخول.

---

١ إنجيل مرقس الأصحاح ١٦ العدد ١٦

١ إنجيل متى الأصحاح ١١ العدد ٢٨

لفت نظرى الكتابُ المقدّس على منضدةٍ تتوسط غرفته، فأخذته وتصفحته قائلاً: هل هذا هو كتابكم المقدّس؟ فأجاب بتلعثم وارتباك: نعم، هذا والقرآن كذلك كله من عند الله، وأسرع للمكتبة وأخرج لى مصحفاً وقال: انظر.. هذا مصحف كله "كويس"**.. القرآن والإنجيل والمسيح ومحمد كله "كويس".. كان يبدو عليه الخوف والفزع منّى** فأردتُ أن أقتربَ منه فإذا به يبتعدُ كلما اقتربتُ منه، أخذ يبتعدُ عنّى حتى قطعنا الصالون وكلٌ منّا يدور حول الآخر، وأخيراً اقتربتُ منه إذ لم يجد مكاناً ينزوى فيه، وقلتُ له: لماذا تبدو هكذا؟.. أريد أن أتكلم معك. علماً بأنّ صديقه الذى كان معى دخل أحد غرف البيت ليستريح، فقد كانت تربطهما معاً علاقة قويّة، وانتهزتُ هذه الفرصة لأتحدث معه عسى أن يساعدنى على بلوغ ما أريد، لكنّه لم يتجاوب معى **فطلبتُ منه أن أزوره مرّة ثانية وحدى فقال: لا مانع.. لكن لا نكون وحدنا** بل سيطلب بعض أصدقائه، قلتُ: لا مانع ورجوته أن يكتب لى العنوان. كتب لى العنوان وزرته فى اليوم المحدّد، وإذا به قد جمع نصف دستة من الأصدقاء خوفاً منّى.

تكلمتُ قليلاً معه ولا أنكر **أننى كنتُ أتكلم كقائد عسكرى مهزوم يفاوض المنتصرين،** كنت أضع رأسى وأنظر أسفل قدماى من الخجل وأنا فلان الذى كان وكان.. ها هو يستجدى من المسيحيين كلمات تقوده نحو ما كان يحاربه من قبل. لكن **فى الواقع سلام الله والرغبة فى الخلاص، هما اللذان دفعانى للتنازل عن كل شىء فى سبيل الظفر بملكوت الله الذى طالما بحثتُ عنه قديماً** وقدّمتُ من أجله كل ما استطعتُ، فلماذا لا أقدم الآن بعد أن اكتشفتُ **أننى كنتُ ألهث نحو سرابٍ لا وجود له إلا على صفحات الكتب.**

أصبح عندى رغبة لعمل أى شىء للوصول إلى طريق الربّ، **كان صديقى هذا قليل المعرفة بالكتاب لذلك لم يقدّم لى جديداً. وكانت لديه مشاكل عائليّة حتى أننى سمعتُ من بعض الناس أنّه يفكر فى الإسلام ليتزوج مرّة أخرى، ممّا أزعجنى واحتقرته** وشعرتُ بأنّه لن يقدّم لى ما أحتاجه، لكن بعد أن تقربتُ إليه وتكررت زيارتى له توطدت علاقتى به كثيراً وكان يهيئ لى مكاناً أقرأ فيه بحُريّة. لم يحاول أن يفرض فكراً ما علىّ لأنّه **كان لى اتجاه واحد محدّد وهو الربّ يسوع بعيداً عن الفِرَق والطوائف التى عانيتُ منها فى الإسلام من قبل،** لكن قد تأتى الرياح بما لا تشتهى السَفِنُ إذ لم تدُم تلك العلاقة طويلاً.

علمتُ أنّ هناك شخصاً آخر أكثر فقهاً فى الكتاب، لكن علاقتى به كانت فى سيئة. كان كلما طلب منّى شيئاً فى العمل، أقدّم إليه بيانات خاطئة وأحرض الناس عليه بل أمنحهم هدايا كلما أهانوه وأضرّوه. استبعدتُ أن يوافق على مقابلتى، لكنّه وافق وطلب مهلة شهراً ليفكّر، وطلب منّى أن أعاود الاتصال به قبل أسبوع من مرور الشهر. أحسستُ أنّ الدائرة بدأت تضيق حولى، فلا كنيسة تريد أن تسمعنى، ولا أفراد يريدون مقابلتى، كانت صورتى عند كل المسيحيين لا تبعث على الارتياح بل لا أكونُ مبالغاً إن قلتُ **أنّ مَنْ كان يريد تهديد أى مسيحى، يقول له سأقول لفلان، كنتُ أشبه بالوحش الذى يخيفون به الأطفال...** وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع من مرور الشهر اتصلتُ بالرجل ذاك، لأعرف هل ما زال على وعده، أم لا.. **لم يكن عندى تليفون وكنتُ كلما خرجتُ خارج منزلى، أخذتُ الأوراق التى كتبتها معى خوفاً من أن يطلع عليها أحد ويعلم ما فيها ويحدث ما لا يُحمد عُقباه...**

كان لدىّ كما قلتُ أبحاث عن لاهوت المسيح، وهل القرآن كلام الله، النبوّة ومحمد، هل هو نبىّ أم ماذا؟ كنتُ أحملُ كل هذه الأوراق مع الكتاب المقدّس فى حقيبة بلاستيك، وعندما ذهبتُ لأتكلم فى التليفون من محطة القطار السريع فى مدينتى، **فوجئتُ بالحقيبة وقد سُرقت بكل ما فيها**.الكتاب المقدّس، الأبحاث، الحافظة، البطاقة الشخصيّة... لم يتغيّر وجهى ولم تظهر علىّ علامات الغضب، **إذ كنتُ أملك برود أعصاب، اكتسبته من كثرة احتكاكى بالمباحث ورجال الأمن**. لكن كلَ الذى سيطر على تفكيرى وشغلنى هما أمران:

الأمر الأوّل: ربّما يقرأ السارق ما هو مكتوب ويرسله إلى الأمن ويكون من السهل عليهم الوصول إلى كاتبه من خلال البطاقة وبهذا أكون مستحقاً لأقصى عقوبة لأنّ ما فى الأوراق هو **تهجم على القرآن وعقوبته الوحيدة الإعدام،** لكن هذه النقطة لم تشغلنى كثيراً **فأنا على يقين أننى حين تحين ساعتى لن أتأخر ولن أستقدم عنها فنحنُ ولا محالة ميّتون.**

الأمر الثانى: الذى شغلنى وقلب كيانى هو وسواسٌ قوىّ اجتاح تفكيرى وسيطر على كل مشاعرى وهو: أنّ الله يحبّنى كثيراً وها هو يقدّم لى الدليل الواضح القوىّ على أنّ سلوكى تجاه المسيحيّة باطل، وما هو إلا طريق الشيطان، **والدليل أنّ الله قد أزاح من أمامى كل تهجم على كتابه ورسوله الكريم وأذهبَ عنّى السموم من خلال**

فقدان الكتاب المقدّس، لا يوجد دليل أقوى من ذلك لتعرف أنّك كنت تسير فى الضلال، قم الآن ولا تتأخر عن التوبة لله فإنّ الله غفور لمن تاب وآمنَ وعمل صالحاً، **قم الآن اغتسل ممّا لحق بك من دنس نتيجة تفكيرك الشيطانى وسلوكك نحو الشرك والفسوق.**

لم يكن أمامى سوى الإذعان لأفكار إبليس، خاصة وأنّ صديقى الذى تعرّفتُ عليه من قبل وكان يسمح لى بزيارته والجلوس عنده فترات طويلة، عندما عَلِمَ بأننى فقدتُ الأوراق تلك، ارتعب وملأه الخوف وطلب منّى أن لا أتصل به أو أزوره حتى نرى نتيجة ما قد يحدث بسبب فقدان هذه الأوراق. كان ذلك بمثابة الخيط الأخير الذى كنتُ أتعلق به وها هو يُقطع مثل البقيّة.

شعرتُ أنّ الله لا يريد لى هذا الطريق، وأننى لن أقدر على الصبر فى تلك المعركة، إذ أننى بكل صدق رغم ما توصلتُ إليه، وما علمته وما لمسته من حلاوة وعذوبة فى كلمات الكتاب، واجتهادى ومواظبتى على الصلاة (أبانا الذى فى السموات...) باستمرار دون انقطاع، **لم يحدث فى سلوكياتى أوشخصيتى الذاتيّة أى تغيير،** فما زلتُ "وقتها" أكن الحسد والحقد على المسيحيين، **ولم أستطع مسامحة أحد مِمّن أساءوا إلىّ، ولم أقدر أن أقول لوالدتى حتى مجرّد صباح الخير،** كنتُ أخرج من البيت وعلامات الغضب ترتسمُ على وجهى بل كنتُ أتعمد إظهارها أمام والدتى وإخوتى حتى يعلموا أنّهم كفّار وأننى لا أحبّهم، وما زالت روح التمرّد والعدوانيّة تملأ كيانى **حتى أننى شككتُ فى مصداقيّة ما قرأته فى الإنجيل.**

إنّ كل ما ذكرت، وما حدث من فقدان الأوراق اجتمعَتْ معاً علىّ فى هجمة شرسة، ربّما لتعطيل عمل الله فىّ أو لكسر إرادة تولدت لدىّ مؤسسة على محبّة بدأت تنمو نحو الإنجيل... **ومرّة ثانية انخرطتُ فى البكاء الشديد معاتباً الله** عمّا يحدث معى، فكلما قررتُ أن أخطو نحوه، وتبدأ الأمور سيرها على ما يُرام يحدثُ ما يعرقل... فهل هذا عدلٌ منه!... يا ربّ لماذا أنتَ هكذا معى؟ ماذا فعلتُ؟ **إن كنتَ تعاقبنى على ما فعلته فى الماضى تجاه المسيحيين فها أنا أتوب وأطلب عفوك وصفحك الذى تمّ بموتك على الصليب،** أم أنّ صليبك ليس أكثر ممّا كنّا نقرأ عنه! مَن أنتَ حتى أتقرّب إليك وماذا يرضيك لأفعله، بَئِست الحياة إن كانت كما أحياها، الموتُ أهون علىّ...

خذ نفسى يا الله، إن كنتَ لا ترضى علىّ فلأنتحر...! لايضيرنى أن أدخل النار بسبب ذلك، لأنك إنْ لم ترض علىّ فإنّى داخلها، والإثنان سواء، بكيتُ كثيراً وتألمتُ كثيراً ولم أجد أمامى سوى أن أترك المكان ودموع عينىّ تجرى أنهاراً على وجهى حتى لفتت أنظار والدتى، فأخذتْ تربتُ على كتفى وتبكى على بكائى، وتسألنى ماذا بك يا ولدى فأقول لا شيء، اتركونى وحدى، لا أريد أن أتكلم مع أحد، **لقد تكلمتُ معكم مرّة فاتهمتمونى بالجنون... ربّنا يسامحكم!!**

أسرعتُ إلى غرفتى وقمتُ واغتسلتُ لأزيلَ ما لحق ببدنى من نجاسة نتيجة التفكير فى المسيحيّة وما اقترفته يداى، وأخذتُ أفكر... هل سيغفر الله لى ما قلته على نبيّه وما كتبته عن قرآنه؟ وإذا بى أشعر وكأنّ شخصاً يجيبنى قائلاً: أنتَ لم تتهجم على أحد ولم تتكلم بالباطل، فكل ما وصلتَ إليه ليس من عندك أنت، بل هو نفسه تكلم. **ووقفتُ باسطاً سجادتى وأخذتُ أنطقُ بالشهادتين حتى أعود إلى الإسلام ثانية وانتصبتُ لأصلى فلم أقدر أن أنطق بحرف واحد من القرآن ولم أقدر أن أنحنى لأركع** فجلستُ واضعاً رأسى بين كفّى يدىّ فترة ثم قمتُ ولم أنطق سوى كلمات معدودة: يا ربّ... إن لم يكن بك غضب علىّ فلا يضيرنى شيء وإن كنتَ تقتص منّى لذنب فعلته فأسألك الرحمة فى قصاصك وإن كنتَ تقف فى طريق هدايتى فليس ذلك من طبعك، يا ربّ... لم يعد لى قوّة لأقاوم ما أنا فيه، **وإن لم تظهر لى ذاتك فسأضلّ، إننى أحبك،** وقد سلكتُ سابقاً كما أمرتَ وفعلتُ ما لا يستطيع أحد أن يفعله اعتقاداً منّى انّ هذا يرضيك، **وعندما أريتنى نورك وسمعتُ النداء أنّكَ تريدنى لم أتباطأ...** فإلى متى تتركنى أتخبط فى الظلمات... إن كان ما يحدث هو اختبار محبة أعددته لى لتقودنى إلى حظيرتك أيّها الراعى الصالح فزدنى، لأننى بذلك أكون على موعد للقائك.

فى تلك الليلة نمتُ نوماً عميقاً، لم يسبق لى أن استمتعتُ بمثله من سنوات، وقرب الفجر تقريباً رأيتُ رؤيا فى منامى، وإذا برجل عريضُ المنكبين، كثيفُ اللحية، فارعُ الطول، محمرُ الجبين، مسترسلُ الشعر، بديعُ الصورة، لا نظيرَ له فى جماله. وإذا به يحيط بمنكبى ويهزنى بلطفٍ قائلاً: أما زلتَ تشكُ فىّ؟ قلتُ: مَنْ أنتَ لكى أشكَ فيك؟ إنّى لا أعرفك... قال: أنا مَن تبحث عنه... قلتُ: لا أدرى... ذكرنى. قال: اقرأ فى الكتاب... لماذا لا تقرأ فى الكتاب... ؟ قلتُ: ألم تعلم أننى فقدتُ الكتاب، وكل أوراقى؟ فكيف أقرأ؟ قال: إنّ الكتاب لا يضيع، قمْ وافتحْ دولابك فستجده

هناك وباقى أوراقك سوف تعود إليك خلال اسبوع. انتفضتُ كمن أيقظه أحد بسوط وأسرعتُ بدون تفكير نحو الدولاب الصغير الذى كان بأحد أركان غرفتى وفتحته وأنا أرتجف فإذا بالكتاب الذى فقدته هو بعينه داخل الدولاب فوقفتُ لحظات أرتعش كمن كان فى يوم قارس البرد.

احتضنتُ الكتاب كطفلٍ كان غائباً عن أمه زماناً ثم عاد، وأسرعتُ لا أدرى كيف، نحو والدتى لأوقظها وأقبلها بكل فرح، وأعلن لها ما حدث اليوم، وأننى (لن أسمح لكم أن تقولوا عنّى أننى جننتُ)، وأخذتُ أرتمى فى أحضانها باكياً وأرددُ: سامحينى يا أمّاه على كل ما بدر منّى تجاهك، كنتُ أحسبُ ذلك من الإيمان، أمّا الآن فقد علمتُ ما هو الإيمان، من فضلك دعينى أقبل قدميكِ ولن أقبل أقل من ذلك. قالت: ماذا حدث لك يا بنىّ... أخبرنى! قلتُ: سأقول لكِ لكن أسألكِ بكل مَن هو عزيز لديكِ... لا تقولى جننت... لقد هدانى الله يا أمّاه. قالت: ومِن قبل أين كنتَ؟ قلتُ: إنّ الله الذى هدانى... ليس هو مَن كنتُ أسيرُ فى فلكِه مِنْ قبل، قالت: مَن هو هذا الإله؟ قلتُ: هو المسيح (عيسى) كما يدعوه القرآن. قالت: أرجوك يا بنىّ... لا تخبر إخوتك بذلك وإلا اتهموك بالجنون. **قلتُ: وهو كذلك، سأفعل... ولكن هل أنتِ تصدقينى يا أمّى؟ قالت: لماذا لا أصدقك وقد رأيتُ الدليل أمامى... إنّ ما فعلته معى اليوم هوعمل عظيم، كان أمنية قلبى منذ عشرين عاماً وقد تحقق اليوم. إنّ الله لن يتركك، كن حريصاً واكتم الأمر عن اخوتك. قلتُ: لوتعلمين ما بداخلى يا أمّاه لعذرتنى... أريد أن أقف فى وسط الطريق وأعلن أنّ المسيح هو الله وأنّه غيّرنى وفعل بى ما عجز إله محمد أن يفعله، فوضعَتْ يدَها على فمى لتمنعنى من الكلام.**

لم أنم ليلتها... كنتُ أتوقُ لضوء النهار لأخرج إلى الناس ليرونى وكأنّى خرجتُ إلى الحياة للتو. ذهبتُ فى الصباح الباكر ناظراً من حولى وإذا بى أرى كل شىء جميلاً، وكل الناس طيّبين، وفى بساطة عجيبة أخذتُ أسلم على كل مَن يقابلنى سواء عرفته أم لا، وذهبتُ إلى البقال المسيحى الذى كنتُ أسىء إليه... اعتقد أننى قادمٌ إليه لأفعل ما كنتُ أفعله معه من قبل، فأسرع نحو المكان ليغلقه، فناديتُ عليه ... أرجوك انتظر. لا تخف. فوقف متسمّراً فى مكانه ولم يتفوّه بكلمة، وإذا بى أجدُ نفسى أقبّله وأطلبُ منه أن يسامحنى وإذا بالرجل يبكى، وسمعته يقول كلمات لم أعرف معناها إلا بعد ذلك، قال: هللويا مجداً لله. فقلتُ: ماذا تقول؟ قال: ستعرف ما قلتُ فى حينه... ثم انصرفتُ وأنا أرى الناس بصورة تختلفُ تماماً حتى أننى شككتُ فى نفسى... ما هذا التغيير العجيب؟! كانت نظرات الناس تلاحقنى أينما كنتُ، مندهشين ممّا حدث لى، حتى زملائى فى العمل كانوا ينظرون إلىّ بتعجُب ويضربون كفاً على كفٍ وكأنّهم يقولون: ماذا حدثَ لهذا الإنسان بالأمس كان يبصق علينا وها هو الآن كالحمل الوديع!... ماذا يدور فى خاطره، هل هذه مكيدة جديدة يخطط لها؟... كنتُ أرقبُ فى أعينهم الحيرة تجاه سلوكى الذى تغيّر ١٨٠ درجة .

لم يكن يشغلنى ما يقولون، أكثر من انشغالى بالإحسان إلى كل الذين أسأتُ إليهم... واستمتاعى بالفرحة العارمة التى ملأت كل كيانى، مع الوداعة المتناهية والهدوء النفسى. كنتُ فى حلم جميل لا أريد أن أستيقظ منه... عجيبة هى قوّة الله المغيّرة!... كنتُ متعجلا للاختبارات التى تثبت أننى حقاً تغيّرتُ وإلى الأبد وليس وقتيّاً.. كنتُ أفكر باستمرار فيما قاله لى الرجل الذى رأيته فى المنام أنّنى سأعثر على الأوراق خلال أسبوع. مرّت أيام ثم بدأ الشكُ يتسلل إلىّ، كنتُ أخشى من أنّ فرحتى لا تدوم لو لم أعثر على الأوراق.

فى اليوم السابق لتمام الأسبوع كنتُ قريباً من محطة القطار، وأردتُ أن أتصل هاتفيّاً، ولم يكن أمامى سوى نفس الهاتف الذى عنده فقدتُ الأوراق والكتاب من قبل فترددتُ، كنت أتقدّم نحو الهاتف ثم أرجع ثانية إلى الخلف، حتى لاحظ ذلك صاحب الهاتف فقال لى: ماذا تريد؟ أراك متردداً.. هل حدث شىء؟ فقلتُ: لا... لكننى آسف أن أقول: **إننى متشائم من هذا الهاتف، فمنذ أسبوع استخدمته وفقدتُ حقيبتى وأنا اليوم أريد الاتصال ولستُ أدرى ماذا سأفقد تلك المرة.. فقال: هل تلك الحقيبة لك؟..** قلتُ: نعم.. هل لديك معلومات عنها؟ فقال: اعطنى علامة وأنا أخبرك أين هى. فقلتُ: إنّها حقيبة بلاستيك، بها مجموعة أوراق، وكتاب مثل المصحف، وبطاقتى، وجواز سفرى، وليس بها نقود. قال: هى كذلك.. **تعال غداً وأنا أذهب معك إلى مَن وجدها**.

فى اليوم التالى وكان تمام الأسبوع، ذهبنا معاً إلى **قرية من ضواحى القاهرة ناحية الجنوب**، وقابلنا الرجل الذى عنده الحقيبة وأعطانا إيّاها، وفتحتها ولم أجد الكتاب، فقلتُ للرجل: إنّ الحقيبة ينقصها كتاب.. فقال: والله ما أخذتُ منها شيئاً ولم أفتحها إلا يوم أحضرتها إلى بيتى، **وكان بها أوراق وجواز سفر وبطاقة ومصحف (الكتاب**

المقدّس) ولم أر ما فيها ثانية حتى اليوم... فرحتُ جداً بما قاله الرجل وأخبرته أننى صدّقته... فذلك معناه أن الله أعاد الكتاب إلى بيتى بعد أن فقدته.

إننى طوال أيّام حياتى الإسلاميّة لم أعهد أن أطلب من الله أو أن أرى مثل ما حدث... وكان هذا سبب سعادتى. حقاً كان هذا يمثل بالنسبة لى معجزة فوق كلّ المعجزات، حتى أننى **عدتُ أرى نفسى لا شىء أمام عمل الله العظيم الذى عمله معى،** فقلتُ: يا ربّ... مّن أنا.. حتى تفعل معى هكذا، وفى الحال جاءنى الجواب: أنا فعلتُ وسأفعل أعظم للذين يحبوننى... كنتُ أحدّثُ نفسى قائلاً: **سأكونُ سعيداً لو سمح الله وأدخلنى فى اختبار لكى أتأكد من أننى فعلاً قد تغيرتُ..** وسرعان ما استجاب الله لرغبتى، وكان أول اختبار لى فى علاقتى الجديدة مع المسيح: **كنّا فى عملنا نحصلُ على مكافآت دوريّة بالتناوب لكنّى كنتُ أجبرهم على أن آخذ من هذه المكافأة شهريّاً دون انتظار لدورى لأنّ هذا مال كفّار لا يجب العدل فيه.**

وذات يوم حان موعد الصرف وكان هناك زميل يمرُ بضائقة ماليّة عائليّة **وجاء للمدير المسئول يطلب منه أن يمنحه المكافأة هذا الشهر ليخرج من ضائقته هذه، فقال له المدير: إنّ (الكشوفات) قد وُضِعت وهذا دور غيرك من زملائك وكلٌ منهم يعانى ظروفاً شبيهة بما تمرُ به، أمّا بخصوص فلان... فلا نقدر أن نمنع عنه المكافأة فأنتَ تعلم أنّه إنسان شرير ونحن نتقى شرّه**، وحدث أن دخلتُ فى تلك اللحظة مكتب المدير ووجدته يتهامس مع زميلى فقلتُ على الفور وبنغمة هادئة: أتتحدّثون عن المكافأة؟ قال المدير بسرعة وارتباك: نعم... لكن أنت لا تخش شيئاً، فاسمك مدوّن فى رأس الكشف. فقلتُ: إذن فماذا يريد فلان؟ قال: هو يريد أن نضع اسمه هذا الشهر فى الكشف لكن اعتذرتُ له. فقلتُ: ولماذا اعتذرتَ له؟ يمكنك أن تضعه بدلاً منّى. ظنّ المدير أننى أسخر منه فقال: قلتُ لك إنّ اسمك مدوّن فى رأس الكشف ولن يقدر أحد أن يمنعك من المكافأة. قلتُ: لكن أنا أريد أن أتنازل عنها هذا الشهر لزميلى. فقال: أنتَ... مش ممكن. فقلتُ: نعم أنا. فقال: كيف؟ قلتُ: هكذا مثل ما سمعتَ، أرجوك **أن تحذف اسمى وتضع اسمَه مكانى، ومن الأفضل أن تتنازلوا جميعاً له هذا الشهر. فسمعته يقول: سبحان مغيّر الأحوال... ماذا جرى؟... القيامة سوف تقوم! فلان... يتنازل عن المكافأة؟ مش ممكن!**

قلتُ: الله قادر على كل شىء، يخرج من الآكل أكلاً ومن الجافى حلاوة[1] كانت عيناى مغرورقتين بالدموع من هذا الموقف الذى لم يحدث معى مثله فى حياتى... لقد اعتدتُ أن آخذ ما لى وما ليس لى، أمّا الآن فقد علمنى المسيح أن أعطى وكانت فرحتى لا توصف وأنا أشعر بحلاوة وطعم العطاء.

بدأ أهلى وإخوتى يلمسون هذا التغيير الذى حدث فى حياتى، فقد كانوا بمجرّد أن يرونى يغلقون التليفزيون ويهرب كل واحد منهم إلى مكانه، خاصة أخواتى البنات، لكن هذا اليوم دخلتُ عليهم ولم يشعروا بى فأسرعوا نحو التليفزيون ليغلقوه وكل منهم يتهم الآخر بأنه هو الذى كان يستمع إليه، فقلتُ لهم: مش مهم مَن الذى فتحه المهم لماذا أراكم مرتبكين ثم فتحتُ لهم التليفزيون وقلتُ لهم: شاهدوا ما تريدون لكن البرامج التى تخدش الحياء أرجوكم لا تشاهدوها، **قالوا: مش ممكن إنت تسمح لنا بمشاهدة التليفزيون**. قلت: ولِمَ لا... **لو تعلمون ما بداخلى نحوكم لصدّقتم أننى أحبّكم كثيراً وأريد منكم أن تسامحونى على كل إساءة بدرت منّى نحوكم وإذا بى أراهم جميعاً يبكون**، وكنت كلما خرجتُ من المنزل وعدتُ ثانية **أقبّل والدتى وأحضر لها هديّة**، فما كان منها إلا أن تبكى من التأثر وإنى أشكر الله كثيراً أنها **قد توفيت وهى سعيدة بى وأنا أشعر أننى قد كفّرتُ عن القليل من إساءتى إليها، وعوّضتها قليلاً عمّا بدر منّى سابقاً... كنتُ فرحاً جداً بهذا الإله الذى أعاد البسمة على شفاه جميع أفراد المنزل مؤمنين وغير مؤمنين.**

كانت معموديّتى فى اليوم التاسع من الشهر الخامس من سنة ١٩٩٣ ميلاديّة

كان الإخوة المسيحيّون الذين ذكرتهم، يتابعون أخبارى باستمرار، لكن ساورهم خوفٌ شديد من أنْ يكتشف الناس فى القرية أمرى فيلفقون بالتبعيّة عليهم، فطلبوا منّى أن أترك مصر وأغادر إلى الخارج، لكننى رفضتُ ذلك بقوّة، لأن ما فعلته بالمسيح والمسيحيين كان يلاحقنى، لذا اخبرتهم أننى قد صليتُ من أول يوم تغيّرت

[1] سفر القضاة الأصحاح ١٤ العدد ١٤

فيه حياتى، أن يساعدنى الله لأن أعملَ للمسيح بقدر ما أسأتُ إليه، وأنا أسأتُ إليه بمصر، فلن أغادر مصر. ووعدتهم بأنّه إذا تمّ القبضُ علىّ فلن أذكر أسماءهم بأى حال من الأحوال.

وذات يوم من الأيّام، طلبوا منّى أن أذهب معهم إلى كنيسةٍ لمْ أذهبْ إليها من قبل فوافقتُ، وتقابلتُ مع أحد الآباء هناك، وقصصتُ عليهم ما حدث معى، فرأيتُ الفرحة والبهجة ترتسمُ على وجوههم بسبب عمل الله العجيب فىّ، وطلبتُ منهم المعموديّة فتجاوبوا معى، وكان ذلك فى يوم ٩ من شهر مايو سنة ١٩٩٣ م . وما زلتُ أذكر ذلك اليوم السعيد، لأننى إنْ كان لى أنْ أحسب عمرى الحقيقى، فهو بالتأكيد يرتبط بهذا التاريخ الذى فيه وُلِدتُ من جديد.

ثمـــار الإيمـــان

إن كنتُ قد تكلمتُ باستفاضة عن حياتى قبل الإيمان، فمن الضرورى والمهم أن أتكلم كذلك عن عمل الله فى حياتى بعد الإيمان. كان كلُ المقرّبين إلىّ ليس لديهم أدنى شك فى أنّه من المحال أن أتغيّر بهذه الدرجة. لم يكن أحدٌ منهم يصدّق ما رآه بعينيه فى حياتى بعد الإيمان. وإن كنتُ قد طلبتُ من الله ذات مرّة أن يختبرَنى لأعرف هل أنا قد تغيّرتُ فعلاً أم لا... **لكن الله الآن يُدخلنى فى التجارب المتنوّعة[1] ليس ليعطينى ثقة فيما حدثَ لى، بل أقولُ بكل ثقة إنّه سَمحَ ويسمحُ أيضاً بتلك التجارب ليدربَنى، كى أكون لائقاً للمهمة الجليلة التى وضعها على قلبى.** فليس بعامل الصدفة اخترتُ أنا هذا الطريق الجديد، وليس بحكمتى اخترتُ تلك الحياة مع المسيح بل على النقيض، كنتُ أحاول تكذيب ما رأيته بعينىّ. لكنّ المسيح هو الذى اختارنى، ولم يخترنى اعتباطاً، بل لخدمة سبق فأعدّها لى وأعدّنى لها ويعدّنى على الدوام، **لمجد اسمه وامتداد ملكوته**. وسأذكر هنا بعضاً من تلك التجارب التى قابلتنى وعملَ الله بقوّةٍ فيها.

كنتُ أعملُ فى مكتبٍ يضمُنى مع ثلاثة زملاء آخرين، لا نجتمع سويّاً إلا نادراً. وكلٌ منّا يملك دولاباً لخلع الملابس ووضعها مع حاجياته الشخصيّة فيه. **وذات يوم فوجئتُ باختفاء بعض الأشياء من دولابى**، ولم أشك فى أحد، وفى اليوم الثانى تكرّر نفس الشيء، ومرّة ثالثة تكرّر نفس الموقف واكتشفتُ أنّ قفل الدولاب مكسور واختفى مرتبى الذى نسيته فى الدولاب. فعلمتُ أنّ الأشياء اختفت عن طريق أحد زملائى. وفجأة سيطرت علىّ روح شيطانيّة رهيبة، **وأخذتُ أسب والعن بأسلوب الإنسان العتيق الذى كان فىّ قبل الإيمان**، وقررتُ بينى وبين نفسى أن أحطم كل الدواليب الموجودة بالمكتب. وذهبتُ وأحضرتُ شاكوشاً لأنفذ ما قررته، وأغلقتُ المكتب بعد أن التفتُ يميناً ويساراً لكى أتأكد أنّ أحداً لا يرانى. رفعتُ يدى وأنا مملوء غضباً وغيظاً. وقبل أن أهوى بيدى على أوّل قفل، إذا بشيء يمسك يدى وصوتٌ خافتٌ يقول: **لا تقاوم الشر وكن صانع سلام**. فالتفتُ يميناً ويساراً لأجد الصوت فلم أجد شيئاً فقلتُ فى نفسى: هل يرضيك يا ربّ ما يحدث لى، لكن لتكن مشيئتك... مِن فضلِكَ هَبْنى سلامَك، وفجأة شعرتُ بسلام عجيب.

ثم سمعتُ مَن يطلب منّى أن أكتب على ورقة من أوراق التقارير اليوميّة ما يلى: أخى الذى يفتح الدولاب، إنى فى غاية الأسف لعدم تمكنى من تلبية احتياجك ، لكن من فضلك أكتب ما تحتاجه وأنا بمشيئة الله سأحاول تلبية طلبك، وللدلالة على صدقى لن أستبدل القفل المكسور، واعلم أنّ محبّة الله لنا نحن البشر فائقة وأخيراً لك أسأل سلام الله الذى يفوق كل عقل، والربّ قادر أن يحفظ حياتك إلى الأبد... أخوك... وبعد أن انتهيتُ من كتابة ما سبق وضعتُ الورقة فى الدولاب وتركته على وضعه المعتاد، **وصليتُ لأشكر الله إذ منعنى من الانقياد للأفكار الشيطانيّة وعدتُ إلى منزلى فى غاية الفرح لأننى قد انتصرتُ على إبليس**، وبمجرّد أن فتحَت لى زوجتى الباب، حتى أخذتُ أعانقها وأحكى لها ما حدث معى. فقالت: لا تخف... فإن كان الله معنا فمن علينا. ومن جهة ما فقدنا من مال فالكتاب يقول: **كُنْتُ فَتىً وَقَدْ شِخْتُ وَلَمْ أَرَ صِدِّيقاً تُخُلِّيَ عَنْهُ وَلاَ ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزاً** [2] **إنّ الله قادرٌ أن يسد كل احتياج لنا لأنه هو المتكفّل بنا.**

---

١ رسالة يعقوب الأصحاح الأول الأعداد ٢- ٤

٢ مزمور ٣٧ العدد ٢٥

بعد يومين كانت المفاجئة، إذ وجدتُ أحد زملائى قد حضر فى ورديتى على غير العادة، فسألته لماذا أتيت الآن؟ قال: أريد أن أتكلم معك. قلتُ: بماذا تريد أن تتكلم معى؟ قال: أفضل أن نصعد إلى مكتبنا لنكون بمفردنا.. فصعدتُ أنا وهو وجلسنا كلٌ فى مواجهة الآخر، ورأيته قد نظر بوجهه إلى الأرض وقال: لا أدرى ماذا أقول لك، ولا أدرى كيف أتصرّف. قلتُ: ماذا حدث؟ اخبرنى. **فإذا به يفتح حقيبة صغيرة ويخرج منها كل الأشياء التى أخذها من دولابى وأنا لا أصدق ما يحدث. لم أكن أتوقع أن يكون هو الذى فعل ذلك فقد كان شاباً مصلياً متديناً.** ثم قال: هذه هى الأشياء التى أخذتها من دولابك لكن أرجوك.. لا تخبر أحداً. أما ما أخذته من (فلوس) فلن أستطيع أن أردّها لك الآن، لأنّ أولادى كانوا مرضى وبحاجة إلى علاج ويمكننى أن أردّها لك على دفعات شهريّة. قلتُ له: خذ كل هذه الأشياء يا... إنّها الآن ملكك، والربّ يدبر كلّ احتياج. فقال: أشكرك ولكن أريد أن أسألك سؤالاً راجياً أن تجيبنى بصراحة. قلتُ له: تفضل. فقال: **إنّك تتكلم كما يتكلم المسيحيّون: الربّ .. الربّ وبهذا الأسلوب يتكلم جرجس النجّار الذى يسكن بجوارى. قلتُ: الحقيقة يا... أننى عندما واجهتُ ما حدث كنتُ أمامَ اختيارين:**

الأول : أن أردّ العدوان بنفس العدوان... وأن أحصل على حقى... عملاً بالحديث: **مَن مات دون ماله فهو شهيد** وكذلك: **لا يكن أحدكم إمّعة يؤخذ حقه ولا يبالى** أو بمعنى أصح كان لى حريّة الاختيار فى الطريقة التى آخذ بها ما سُلِبَ منّى.

والثانى : أن لا أردّ العدوان بالعدوان... أن لا أقاوم الشر ولا أنتقم لنفسى ومَن أخذ ثوبى أعطيه الرداء أيضاً[١]. ترى أى الطريقين أفضل؟ قال: الثانى بلا شك.. قلتُ: وهذا ما حدث معى، لقد تصرفتُ بما يحفظ العلاقة بيننا، ويقوّى أواصر المحبّة... **لا يهم مِن أين المصدر: الإسلام أم النصارى أم اليهود المهم التصرف السليم، ولو أننى وجدتُ ذلك فى الإسلام لما توانيتُ فى العمل به فوراً.** قال: مِن أين لك كلّ هذا؟.. ومِن أين جئتَ بهذا الكلام؟ قلتُ: سوف أقولُ لك ولكن ليس الآن... عندما تستريح وتهدأ بعد يوم أو يومين أو شهر... إذا رأيتَ أنّك محتاجٌ لمعرفة من أين جئتُ بهذا... سأقول لك.

بعد حوالى أسبوعين، قابلنى ذلك الزميل أثناء تسليم المكتب له وقال: قد هدأتُ الآن وأريد أن أعرف منك مصدر هذا الكلام كما وعدتَ. قلتُ له: سأقابلك غداً وأقول لك ما تريد معرفته. وفى الغد قابلنى وسألنى نفس السؤال... **أخرجتُ له الإنجيل وقلتُ له: أن كنتَ حقاً تريد أن تعرف من أين كل ما فعلته اقرأ هذا الكتاب. قال: هذا إنجيل!... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... قلتُ له: نعم... هو من الإنجيل** وأنت لك حريّة الإختيار، إن أردتَ أن تعرف... خذه واقرأ... وإن لم ترغب فأنتَ وشأنك... فأخذ منى الكتاب وظلّ يقلبه يميناً ويساراً وينظر إلىّ باستغراب وأخيراً أخذه وإنصرف بعد أن قلتُ له: إنْ صَعُبَ عليك شيءٌ يمكنك أن تسألنى. وظلّ طوال أسبوعين يأتينى بأسئلة متعددة، واستمرّ هذا الوضع طويلاً... حتى لاحظتُ فيه تغييراً كبيراً وحبّاً جماً للكتاب. وذات يوم قال لى **إنّ هذا الكتاب فيه بركة عظيمة فمنذ أن أخذته منك وقرأتُ فيه وجدتُ أنّ كل الخلافات التى بينى وبين زوجتى زالت وحلّ السلام فى بيتنا.**

فاجأنى ذات يوم ذلك الزميل **بأن طلب منّى أن أعلمه كيف يصلى الصلاة المسيحيّة. قلتُ له: ليست للصلاة المسيحيّة هيئة معيّنة، يمكنك أن تصلى فى أى وضع وبأى أسلوب.** وبعد ثلاثة أشهر كانت المفاجأة غير المتوقعة... فقد جاءنى وأخذ يقبلنى ويسألنى كيف يمكنه أن يعتمد... **آمنَ زميلى بالربّ واعتمد وصار بركة لأسرته كلها** ... كم أنا سعيدٌ إذ أنّ الله قد اختارنى لأكونَ مِن خرافِهِ وشرّفنى بأن أكونَ عاملاً فى كرمِهِ **وأن أقودَ الناسَ، لكن هذه المرّة ليس للضلال، بل للخلاص والحياة الأبديّة... كنتُ فى الماضى أصطاد الناس لأضمّهم إلى حظيرة الهالكين، أمّا الآن فلمعرفة الراعى الصالح لينالوا بالإيمان به غفران الخطايا ونصيباً مع المقدّسين**[٢]**.**

بدأتُ لأول مرّة أحبُ بلادى... وأحب الناس وأحب العفو والتسامح... لقد أصبحتُ إنساناً جديداً... واستخدمنى الربّ فى اجتذاب النفوس للمسيح، وإعادة الخراف التى ضلت طريقها إلى حظيرة الراعى الصالح. **وتوالت التجارب والاختبارات، التى أظهرت ما كان عالقاً بى من الإنسان العتيق والطبيعة القديمة، وتوالت محاربة إبليس،** فذات يوم كنتُ ذاهباً لزيارة الأسرة، وأخذتُ ميكروباص من مكان ما إلى حيث تقيم الأسرة، أجلسنى السائق

---

١ إنجيل متى الأصحاح الخامس الأعداد ٣٨ ـ ٤٢
٢ أعمال الرسل الأصحاح ٢٦ العدد ١٨

على كرسى سعته ثلاثة ركاب ولكنّه جعلنى الرابع، وكان بجوارى على نفس المقعد رجل متدين كثيف اللحية وزوجته المتحجبة.

بدأ الرجل يتصرف تجاهى بطريقة عنيفة غير لائقة وشعرتُ أنه لا يريد أن يجلس أحد بجواره لضيق المكان فنزلت ودفعتُ أجرة الكرسى للسائق وطلبتُ منه ألا يضع أحداً معهم. سألنى السائق: لماذا نزلت؟ قلتُ: لايوجد مكان. قال الرجل: لا يا أخى تفضل اجلس. قلتُ له: لا داعى أن نزاحمك أنت وزوجتك. ولكنه أصرّ فركبتُ وأفسحَ لى المكان.

سار بنا الميكروباص بضعة أمتار فإذا بالرجل يسألنى سؤالاً لم أكن أتوقعه إذ قال لى: **هل أنت مسلم أم مسيحي؟** قلتُ: لماذا تسأل؟ قال: أريد أن أعرف فقط. **قلتُ: أنا مسيحى**. فقال: يا خسارة... لو كنتَ مسلماً لكان لسلوكك هذا شأن عظيم. قلتُ له: هل تعرفنى؟ قال الرجل: لا. قلتُ: وأنا أيضاً لا أعرفك، لكن ترى لماذا فعلتُ أنا ذلك معك؟ قال: لا أدرى. قلتُ: لدينا نص فى الإنجيل يأمرنا أن نحب كل الناس[1] حتى الذين يسيئون إلينا، وأنا لاحظتُ أنك كنتَ قاسياً معى فأردتُ أن أبيّن لك المحبّة الغامرة لقلوبنا نحو كل مَنْ يسيء إلينا، ولم أجد سوى هذا التصرف الذى رأيته.

قال الرجل: وهل لديكم كتاب؟ قلتُ: نعم. قال: هل تعبدون الله؟ قلتُ: ومَنْ نعبد إذن؟ قال: نعلم أنّكم تعبدون المسيح والأحبار والرهبان كما قال القرآن. قلتُ: ليس كل ما تعلمونه عنّا صحيح وإلا ما كان الذى وجدته منّى، أشيرُ عليك برأى. قال: تفضل. قلتُ: **سوف أعطيك كتاباً مقدساً بعهديه... القديم الذى هو التوراة والزابور، والجديد الذى هو الإنجيل... لتقرأه وترى ما به، فإن أعجبك فهذا خير، وإن لم يعجبك فلن تخسر شيئاً، وأعطيته الكتاب** واتفقنا على أن نتقابل فى مكان ما.

كنّا نتقابل اسبوعيّاً لأرد على تساؤلاته، وبعد ذلك بدأنا نصلى سويّاً، وبدأ هو يتناقش مع زوجته وقد كان يريد تطليقها، فأخبرته أنّ هذا لا يوافق فكر الله، **وصلينا من أجلها... واستقرّ البيت وعَمّ فيه السلام**. قلتُ له إنّ المسيحيّة حياة تجمع الناس ولا تفرّقهم، **فالزوج غير المؤمن، مُقدّس فى الزوجة المؤمنة، والزوجة غير المؤمنة مقدّسة فى الزوج المؤمن[2]...** كان صديقى منبهراً جداً بما قرأه فى الكتاب، ودخل الربّ البيت وبناه، وأصبح بيتهم مستقِراً، وباركه الله كثيراً.

لا أريد أن أنهى هذه الشهادة، لأنها فى الحقيقة لا نهاية لها.. وطالما الربّ يعملُ فىّ، فالاختبارُ مستمرّ.. **وخلاصة ما أريد قوله: أنّ الله وهبنى حياة أبديّة[3]**، وكمؤمنين بعمل المسيح الكفارى، خطايانا لم يَعُد الله يحسبها علينا[4].. لقد كان الموتُ من قبل يمثل لى شبَحاً مخيفاً، سواءً من عذاب القبر..أو سؤال الملكين.. إلى آخره، أمّا الآن.. فالحياة لى هى المسيح والموت هو ربح[5]. وإلى لقاءٍ قادم، إن شاء الله، فى اختبارات جديدة ومعاملات مجيدة مع الربّ.

"بولس"

---

١ إنجيل لوقا الأصحاح السادس ٣٢ ـ ٣٦
٢ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الأصحاح السابع العدد ١٤
٣ رسالة يوحنا الرسول الأولى الأصحاح الخامس العدد ١٣
٤ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الأصحاح الأول العدد الأول.
٥ رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبى الأصحاح الأول العدد ٢١